

أَكْبَرُ نَارِيحِ الْمَسْتَقْبَلِ



مِنْ جَانِبِ
عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مُوسَى

أَكْتُبُ نَارِيحَ الْمَسْتَقْبَلِ

شَجَرِي

عبد الرحمن يوسف



دار الشاعر للنشر والتوزيع



الفهرس

الصفحة	القصيدة
٥	إهداء
٧	مقدمة
١١	هي الخيانة
١٧	من نسل « جيفارا » و « معتصم »
٢٣	تحت الركام ... !
٢٩	لبنان والقاهرة ... !
٣٥	تاريخ المستقبل ... !



إهداء

إلى سماحة السيّد حسن نصر الله ...
الأمين العام لحزب الله ...
داعياً ربي الذي حفظه من صواريخ اليهود ،
أن يحفظه من صواريخ العرب !

عبد الرحمن يوسف



مقدمة

كتبت معظم قصائد هذا الديوان خلال الحرب الإسرائيلية الفاشلة الغاشمة على لبنان في صيف عام ٢٠٠٦ ، ونشرت كلها - باستثناء قصيدة " اكتب تاريخ المستقبل " - في الصحف المصرية و اللندنية ، و إن لم يجل الأمر من بعض الحذف من القصائد كعادة الرقباء المفطورين على الحمق !

وقبل انتهاء تلك الحرب بأيام ، وقبل صدور قرار مجلس الأمن بوقف إطلاق النار ، بدأت في قصيدة " اكتب تاريخ المستقبل " ، وهي قصيدة تحاول تعريف معنى النصر ، و تحاول أن تتأمل في ماضي الصراع و أن تستشرف ما سيحدث في مستقبله الممتد .

و وجدت القصيدة تتأبى عليّ إباءً . . . !

و وجدت وحي الشعر قد انقطع ، اللهم إلا من رسالة تقول : " لن تكتب هذه القصيدة إلا بذهابك إلى الجنوب الحر بنفسك " !

و استجبت لهذا الهاتف ، و زرت جنوب لبنان بُعيدَ الحرب مباشرة ، و زرت كثيرا من الأماكن التي دار فيها القتال ، و شاهدت الدمار و الأتقاض قبل أن ترفعها الجرافات ، في الجنوب ، و في الضاحية الجنوبية بيروت ، و شاهدت الأبطال الذين حققوا هذا النصر .

حينها . . . بدأت القصيدة تتدفق ، و تمنحني نفسها كامرأة عزيزة

تمنعت ، ثم انهارت في أحضان حبيب !

و ما زلت أكابد كل يوم تأملاتي فيما كتبت ، و تشوقي لما لم أكتبه ،
حتى انتهيت منها في عدة أسابيع ، و كانت نهايتها هذا العام ١٤٢٧ هـ
في السادس و العشرين من رمضان بعد الفجر .

لقد كُتِبَتْ هذه القصيدة بين القاهرة و الإسكندرية و بيروت و قانا
و بنت جبيل . . .

و ما زلت أعتبرها تجربة شعورية متميزة .
في النهاية لا يفوتني أن أشكر مسؤولي (حزب الله) الذين تعاونوا معي ،
و يسروا لي زيارة الأماكن التي أردت أن أزورها .

و بالله التوفيق ،،،

عبد الرحمن يوسف

٢٠٠٦ / ١٠ / ٢٦



الشاعر واقفاً على دبابية إسرائيلية دمرها المقاومون في جنوب لبنان



الشاعر أمام المنزل الذي ارتكبت فيه مجزرة قانا الثانية





أَمْسِكْ دُمُوعَكَ أَنْ تَرْتِي لِقِتْلَانَا

فَالدَّمْعُ يُوقِفُ رَدَّ الظُّلْمِ أَحْيَانَا

أَلِقِ العُصَابَةَ عَنْ عَيْنَيْكَ تَحْبُّهَا

عَنْ رُؤْيَةِ النَّارِ تَشْوِي وَجْهَ لُبْنَانَا

هِيَ الخِيَانَةُ .. قَدْ أَمْسَتْ مُجَسِّمَةً

فِي ذِي القِيَادَةِ خِصْيَانَا فَخِصْيَانَا

هِيَ الخِيَانَةُ .. " ضَبَطُ النَفْسِ " مِنْطِقُهَا

وَتَجْلِبُ الذُّلَّ خُسْرَانَا فَخُسْرَانَا

أَمْسِكْ قَوَافِيكَ أَنْ تُرْدِيكَ تَهْلُكَةً

تُهْدِي المَشَانِقَ أَشْكَالاً وَ أَلْوَانَا

بِالْأَمْسِ كُنَّا نَرَى فِي العِزِّ " قَاهِرَةً "

وَ اليَوْمَ نَرَقُبُ نَحْوَ العِزِّ " طَهْرَانَا ! "

قَدْ شَاخَ قَائِدُهَا عَجْزاً وَ مَسْكَنَةً

قَدْ شَاهَ حَتَّى بَدَا لِلْعَيْنِ "جُعْرَانَا" !

هَذِي صَوَارِيخُ صِهْيُونِ تُوَاجِهُهَا

صُدُورُ شَعْبِ غَدَا لِلْعِزِّ عُنُونَا

هَذِي صَوَارِيخُ "حزبِ الله" قَدْ جَهَرَتْ

بِحُلْمِ عَوْدَةِ أَقْصَانَا وَأَسْرَانَا

بِالْأَمْسِ "جَامِعَةً" كَانَتْ تُجْمَعُنَا

وَالْيَوْمَ قَدْ أَصْبَحَتْ - وَ اللهُ - مَبْغَانَا !

يَا "عَمْرُو" فَلْتَسْتَقِلْ .. يَكْفِيكَ مَسْكَنَةً

يَكْفِيكَ مَسْخَرَةً .. يَكْفِيكَ خِذْلَانَا !

أَمْسِيكَ لِسَانِكَ يَا "مُوسَى" فَقَدْ نَفِدَتْ

كُلُّ الْعِبَارَاتِ عُذُونَا فَعُدُونَا !

نَشْكُو لِقَادَتِنَا دُلًّا . فَوَصَّتْنَا

نَحْوَ الدُّنَابِ حَمَلْنَا الهمَّ حُمْلَانَا !

أَمْسِكْ يِرَاعَكَ أَنْ يَسْتَلَّ قَافِيَةَ

هَيْهَاتَ يَفْهَمُ مَعْنَى الشَّعْرِ مَوْلَانَا !

أَمْسِكْ طُمُوحَكَ أَنْ يَشْتَاقَ تَجْرِبَةَ

نُزِيلُ فِيهَا عَنِ الكُرْسِيِّ أَغْبَانَا

أَمْسِكْ خِيَالَكَ أَنْ يَرْتُو إِلَى غَدِهِ

مُسْتَقْبَلُ الحُلْمِ يُرَوَى غُصْنُهُ الآنَ

سَيْتُونَ عَامًا تُعَانِي القَصْفَ أُمَّتْنَا

وَالقَصْفُ يَرْفَعُ لِلتَّخْرِيرِ بُنْيَانَا

قَالُوا هِيَ الحَرْبُ ، قُلْتُ : الحَرْبُ مَحْرَقَةٌ

يَصْفُو بِهَا مَعْدِنُ الإِنْسَانِ مُزْدَانَا

قَالُوا الدَّمَارُ ، فَقُلْتُ : الحُرُّ دَيْدَنُهُ

لَا يَقْبَلُ الرَّجْسَ عُمْرَانَاً وَ أوثَانَا !

هِيَ الخِيَانَةُ .. أَنْ تُدْعَى " مُغَامِرَةٌ "

قِيَامَةُ الأَسْدِ رَغْمَ القَيْدِ أَدْمَانَا

يَا قَادَةَ الدُّلِّ خَلُّوا اليَوْمَ أُمَّتَنَا

قَدْ وَكَلْتِ غَيْرَكُمُ فِي رَفْعِ بَلْوَانَا !

٢٠٠٦/٧/١٨

القاهرة

صباحا

٧,٠٠





(*) تسلّم سفير فنزويلا هذه القصيدة من الشاعر بنفسه في مقر السفارة بالقاهرة ، و ترجمت و سلمت لدولة الرئيس "هوجو تشافيز" ، و نشرت في جريدة الوفد القاهرية و جريدة القدس العربي اللندنية .

ديوانُ شعْرٍ في يَدَي اليُمْنَى وفي
يُسْرَايَ أَحْمِلُ وَرْدَةً وَنَشِيدَةً

" شَافِيزُ " أَيُّ اسْمٍ يُحَفِّزُ أَحْرَفِي
حَتَّى أَسْطَرَ عِبْرَةً بِقَصِيدَةٍ !

قَدْ جِئْتُ بِأَبَاكَ مَادِحًا وَسَجِيَّتِي
هَجَوْتُ لِأَنْظِمَةَ الطُّغَاةِ بَلِيدَةٍ

هَذِي الْقَصِيدَةُ فِي كِتَابِ مَشَاعِرِي
حَتْمًا سَتَمُسِي فِي الْقَرِيضِ وَحِيدَةً !

" شَافِيزُ " .. فَانْعَقَدَتْ مُقَارَنَةٌ هُنَا
بَيْنَ الْقِيَادَةِ رَخْوَةً وَرَشِيدَةً

دَافَعْتَ عَنِّ بَيْتِ الْعُرُوبَةِ شَامِخًا
لَا تَنْحَنِي حَتَّى غَدَوْتَ عَمِيدَةً

يَا (نَاصِرِيُّ) (*) نَصَرْتِ "نَصَرَ اللَّهِ" مِنْ

أَرْضِ تَلُوحِ قَرِيبَةً وَبَعِيدَةً

يَا نَسْلُ "جِيفَارَا" وَ"مُعْتَصِمِ" غَدَتِ

هَذِي الْعَلَاقَةُ لَوْ نَظَرْتِ وَطَيْدَةً

مَا زِلْتِ تُبْصِرُ فِي الشُّعُوبِ مُعَلِّمًا

وَ سِوَاكَ يُبْصِرُ فِي الشُّعُوبِ طَرِيدَةً!

وَ سِوَاكَ يَرْفَعُ بِالْمَذَلَّةِ عَرْشَهُ

وَ رَفَضْتِ تَخَنُّعُ الْحَيَاةِ زَهِيدَةً

(*) صرح الرئيس « هوجو تشافيز » بأنه (ناصرى) ، وبأنه يؤمن بالقومية العربية !

مَا زِلْتَ تَرْفَعُ مِنْ رَصِيدِكَ عِنْدَنَا
وَسِوَاكَ يَرْفَعُ فِي الْبُنُوكِ رَصِيدَهُ°

أُرْسَلْتَ رَدَّكَ لِلْيَهُودِ مُجَاجِلًا
وَسِوَاكَ أُرْسِلَ بِالْخُنُوعِ بَرِيدَهُ°

فَفَضَحْتَ سَفَاحًا يُقَتِّلُ أَهْلَنَا
وَنَصَبْتَ لِلْأَعْرَابِ شَرًّا مَكِيدَهُ°

لَيْتَ الْجَزِيرَةَ أَنْجَبَتْ نِدًّا لَهُ
أَوْ حَاوَلَتْ مَعَ خَزْيِهَا تَقْلِيدَهُ°

يَا آلَ بَيْتِ رَسُولِنَا فَلْتَقْعُدُوا
خَلْفَ الْحِرَاسَةِ فِي الْقُصُورِ مَشِيدَهُ°!

يَا نَسْلَ آلِ الْبَيْتِ حُدِّبَ نَصْرُكُمْ

وَاللَّهُ يَنْصُرُ بِالْبَعِيدِ عَبِيدَهُ !

فَاسْحَبْ سَفِيرَكَ يَا مُلُوتَ نِيلِنَا

بِمُبْرَرَاتِكَ عَبْرَ كُلِّ جَرِيدَةٍ !

يَا أَيُّهَا الْأَعْرَابُ "هُوجُو" نَاطِقٌ

بِالْحَقِّ وَالْدُنْيَا ارْتَضَتْ تَرْدِيدَهُ

يَا أَيُّهَا الْحُرُّ الَّذِي لَمْ يَسْتَطِعْ

"بوش" وَكُلُّ جِيُوشِهِ تَحْيِيدَهُ

انصُرْ أَخَاكَ - أَخَا الْعُرُوبَةِ - مُؤْمِنًا

وَالْحُرُّ يَصْدُقُ وَعَدَّهُ وَوَعِيدَهُ

يُهْدِيكَ حَرْفُ الضَّادِ كُلَّ إِبَائِهِ

وَصِفَاتُ مِثْلِكَ فِي الْإِبَاءِ عَدِيدَةٌ

مِنْ (فَنزويلاً) قَدْ أَتَيْتَ مُبَشِّرًا
أَنَّ النَّهْيَةَ بِالْجِهَادِ سَعِيدَةٌ

"هُجُوجٌ" . . وَ دَرُسُكَ فِي الْخَلِيقَةِ سَاطِعٌ
قَدْ قَالَهَا : إِنَّ الصُّمُودَ عَقِيدَةٌ !

٢٠٠٦/٨/١١

مساءً

الإسكندرية

٩,٠٠





(*) نشرتھا جريدة الوفد القاهرية أثناء الحرب .

الكلُّ في جَوْفِ الظَّلَامِ ...
حَتْمًا نِيَامٌ ...
وَتَوَاصَلَتْ فِي اللَّيْلِ شَاشَاتُ الْمَمَاتِ
وَشَاشَةُ الْأَحْلَامِ !
هُوَ مَوْجِعٌ يَبْدُو عَلَى الرَّادَارِ
دَائِرَةً صَغِيرَةً ...
وَالْبِنْتُ - بَعْدَ النَّوْمِ - تَلْعَبُ فِي الضَّفِيرَةِ ... !
وَقَذِيفَةُ التَّدْمِيرِ يُطْلِقُهَا عَدُوٌّ سَافِرٌ
بِالضَّغْطِ فَوْقَ الزَّرِّ ... !
يُذْرِكُ أَيْنَ تَسْقُطُ بِالتَّمَامِ ...
لَكِنَّهُ لَا يُذْرِكُ الْعَدَدَ الَّذِي يَفْتَنِي بِضَغْطَةِ زَرِّهِ
تَحْتَ الرُّكَامِ ... !

قَتْلٌ جَدِيدٌ حَلَّ فِي نَفْسِ الْمَكَانِ بِقَانَا ...
فَاكْتُبْ رِثَاءَكَ بَاكِيًا قَتْلَانَا ...
قَتْلٌ جَدِيدٌ جَدَّدَ الْقَتْلَ الْقَدِيمَ
لِيَضْمَنَ اسْتِمْرَارَ مَجْزَرَةِ الْيَهُودِ ... !

قَتْلُ جَدِيدٍ يَحْرِقُ الْقُرْآنَ
حَتَّى يُنْصَرَ التَّلْمُودُ...!

قَتْلُ وَقَتْلُ

ثُمَّ قَتْلُ

بَعْدَ قَتْلِ

يَسْتَفِزُّ فُؤَانَا...!

وَبِرْغَمِ كُلِّ الْقَتْلِ مَا أَفْؤَانَا...!

يَا أُمَّةَ لَمْ تُسْتَفِزَّ لِمَنْظَرِ الْأَطْفَالِ

تَجْتُمُّ فَوْقَهَا الْأَنْقَاضُ...!

يَا أُمَّةَ خَاضَتْ مَعَارِكَ نَصْرَهَا الْمَزْعُومِ...!

لَكِنَّهَا لَمْ تَحْفَظِ الْأَعْرَاضُ...!

إِيْمَانُكُمْ بِالْهَيْكَلِ مَوْهُومِ...!

وَرَسُولُكُمْ فِي قَبْرِهِ مَغْمُومِ...!

أَيْنَ الْمَلَائِكِينَ الَّتِي خَرَجْتَ تَخُوضُ مَعَارِكَ

التَّخْرِيرِ ضِدَّ رُسُومِ...؟!

هَلْ جَفَّ نَهْرُ الْعِزَّةِ الْفِيَّاضِ؟

يَا أُمَّةً لَعَبَتُ بِهَا أَعْدَاؤُهَا الشُّطْرَنْجَ
بِالْحُكَّامِ وَالْمَحْكُومِ ... !

يَا أَنْتَ ...
يَا هَذَا الْعَدُوُّ ...
وَقَصَفُ جَيْشِكَ فَوْقَنَا
نَارُ الْحِمَامِ ...
جَاهِرُ بُوْجِهِ شَاهَ حَتَّى قَدْ غَدَا
يَبْدُو مُصَابَاً بِالْجُدَامِ ... !
يَا أَنْتَ ...
يَا هَذَا الْعَدُوُّ ...
الثَّارُ آتٍ بِالْقِتَالِ فِدَا الصَّبِيَّةِ وَالْغُلَامِ ...
بِالرَّغْمِ مِنْ رَأْسِ النِّظَامِ ...
لَنْ نَسْتَمِرَّ بِدَفْنِ قَتْلَانَا
عَلَى نَعَمِ السَّلَامِ ... !
يَا أَنْتَ ...
يَا هَذَا الْعَدُوُّ ...

اعلم بآن الموت مكتوبٌ على كلِّ الأنام ...
ستذوق مِنَّا القتلَ يا جيشَ النعام ...
لكننا لن نقصِفَ الأطفالَ عمداً
تحت أستارِ الظلام ...
إنَّا لنعلمُ - رغمَ كلِّ القتلِ فينا -
أنَّ للقتلِ احتراماً ... !

٢٠٠٦/٧/٣١ م

القاهرة

صباحاً

٣٠٠٠





أَفْسَمْتُ بِالصَّارُوخِ وَالطَّائِرَةِ°

وَجُتَّةِ الصَّبِيَّةِ الطَّاهِرَةِ°

أَفْسَمْتُ بِاسْتِنْكَارِ مَذْيَاعِنَا

وَباجْتِمَاعِ الْقِمَّةِ الدَّاعِرَةِ°

أَفْسَمْتُ بِالِدَّمَاءِ مَسْفُوحَةٍ°

وَدَمْعِنَا . . وَنَشْرَةِ الْعَاشِرَةِ°

لَوْ أَوْقَفُوا إِطْلَاقَ نَيْرَانِهِمْ

فَالنَّارُ فِي قُلُوبِنَا تَائِرَةٌ°

لَا تُوقِفُوا النَّيْرَانَ ، بَلْ أَوْقِفُوا

أَنْظِمَةً مَأْمُورَةً أَمْرَةً°

يَسْتَدُّ فَوْقِي الْقَصْفُ لِكَنْبِي

وَاجْهَتُهُ بِنَظْرَةِ سَاخِرَةٍ°

و ساكنو القصورِ في دُلهم

قلوبهم في حصنها صاغرة°

قد بحثوا عن حلّ أزمتهم

في أزمتي الغائبة الحاضرة°

كأن جئتني بأوراقهم

بنذ و قد أوجلّ للأخرة!

مقدم الصّدق. عذرتي

بين ولاة الأمر و العاهرة!°

لبنان يا سيّدة عينها

من فزع لربّها ناظرة°

قد أوتقوك فوق قضبانهم

لكي تمرّ فوقك القاطرة°

لُبْنَانُ يَفْدِي الْيَوْمَ أَوْطَانَنَا

وَقَادَتِي فِي غِيَّهَا سَادِرَةٌ

لُبْنَانُ رَعَمَ الْقَصْفَ فِي عَزِّهِ

وَالْعُرْبُ فِي بَارَاتِهَا سَاهِرَةٌ

أَقْسَمْتُ بِالْكَفَّارِ قَدْ سَانَدُوا

إِرَادَتِي الْقَوِيَّةَ الْقَادِرَةَ!

أَقْسَمْتُ بِالْفُرْسِ وَنِيرَانِهَا

وَنُصْرَةَ الْأَعَاجِمِ الظَّافِرَةَ!

أَقْسَمْتُ بِالْأَنْقَاضِ مِنْ فَوْقِنَا

وَتَحْتَهَا عَشِيرَتِي الصَّابِرَةَ!

أَقْسَمْتُ بِالْجُيُوشِ قَدْ جُنِّدَتْ

لِخِدْمَةِ الْمَوَائِدِ الْعَامِرَةَ!

أَقْسَمْتُ بِالنَّقْطِ . . . وَ أَبَارِهِ

وَ كُلِّ مُشْتَقَاتِهِ الْبَاهِرَةِ !

إِذَا أَرَدْتُمْ نُصْرَتِي فَانزِعُوا

خُنْجَرَكُمْ يَعْصُ فِي الْخَاصِرَةِ

لَا تَبْحَثُوا عَنْ حَلِّ أَزْمَاتِنَا

وَ لَتَقْعُدُوا.. فَالْحَلُّ فِي الْقَاهِرَةِ!!!

٢٠٠٦/٧/٢٢

صباحا

القاهرة

٤,٠٠





ارْفَعْ سِلَاحَكَ بَعْدَ النَّصْرِ مُخْتَالًا

يا ابنَ الجُنُوبِ كَسَرْتَ الوَهْمَ أَغْلَالًا

إِنَّ التَّكْبِيرَ مَحْمُودٌ إِذَا ظَهَرَتْ

جُيُوشُ خَصْمِكَ أَرْتَالًا فَأَرْتَالًا

ضَمَدَّ جِرَاحَ زُهُورِ الأَرْضِ ، إِنَّ لَهَا

مِنَ الجِرَاحَاتِ أَلْوَانًا وَ أَشْكَالًا

أَطْلَالُ بَيْتِكَ عَمَّرَهَا مَقَاوِمَةً

وَ العَرَبُ تَبَنَّى بِالِاسْتِسْلَامِ أَطْلَالًا

وَ العَرَبُ كَانَتْ مُلُوكَ القَوْلِ مِنْ أَرْلِ

وَ أَنْتَ أَتَقَنَّتَ يَا مِغْوَارُ أَفْعَالًا

و العُربُ تَكْنِزُ أَمْوَالاً و أُسْلِحَةَ
و تَقْتُلُ الْجَيْشَ تَجْدِيداً و إِحْلَالاً

لا تَنْتَظِرُ جَيْشَهُمْ فِي أَيِّ مَعْرَكَةٍ
لا يَبْدُلُ الرُّوحَ مَنْ لا يَبْدُلُ المَالَ

جَيْشٌ تَتَّاعَبُ فِي التُّكُنَاتِ مِنْ كَسَلٍ
دَوْمًا عَلَيْنَا إِذَا مَا صَالَ أَوْ جَالَ

يا ابن الجنوب دعاة السلم قد هزموا
وانت تُنْشِدُ ذَاكَ النَّصْرَ مَوَالاً

النَّصْرُ أَبْصَرَ فِي عَيْنَيْكَ غَيْمَتَهُ
تَسِيلُ فَوْقَ رُؤُوسِ الأَرزِ سَلَالاً

و النَّصْرُ مَقْطُوعَةٌ قَدْ بَتَّ تَعْرِفَهَا
تُجَدِّدُ الْعُمَرَ أَجْيَالًا فَأَجْيَالًا

و النَّصْرُ نَصٌّ جَمِيلٌ بَتَّ تَسْرُدُهُ
عَلَى الْمَسَامِعِ تَفْصِيلاً وَ إِجْمَالًا

يَا ابْنَ الْجَنُوبِ وَ قَدْ أَرَهَقْتَ قَافِيَتِي
أَعْجَزْتَ حَرْفِي أَلَمًا وَ آمَالًا

” النَّصْرُ يُفَسِّرُهُ بَعْضُ الْحَمَقِيِّ

بِسَلَامَةٍ مَوْلَانَا فِي الْقَصْرِ !

وَ يُفَسِّرُهُ جِنْرَالَاتٌ

بِتَحَوُّلِ رَمَزِ الدَّوْلَةِ بَعْدَ هِلَالِ نَسْرِ !

وَ يُفَسِّرُهُ بَعْضُ الْأَعْوَاتِ

بِأَنْ يَتَعَدَّى مَالِكَ حَدَّ الْحَصْرِ !

مَا مَعْنَى النَّصْرِ؟

قُلْ لِي يَا بَالِغَ طُولِ الْأَرْزِ

فِدَاكَ الشَّعْرُ ...

بِرَبِّكَ خَبَّرَنِي ...

مَا مَعْنَى النَّصْرِ؟

فَتَأْمَلْ فِي كَجَدٍ سَائِرٍ أَصْغَرَ مَنْ

قَدْ جَاءَ مِنَ الْأَحْفَادِ لِكَيْ يَتَحَدَّى الْجَدَّ

بِعَشْرَةِ طَاوِلَةٍ لِلزَّهْرُ ...!

فَصَرَخْتُ بِكُلِّ الْعِزْمِ:

" تَرَفَّقْ بِي!

فَسُؤَالِي جِدُّ لَمْ يَعْرِفْ مَعْنَى اللَّعِبِ!

فَارْحَمْ تَعَبِي ...

يَا مَنْ عَبَّرَ الْأَزْمَانَ يُشَارِكُنِي نَسَبِي ... "

فَأَجَابَ - وَ لَمْ يَنْطِقْ - بِشَوَاطِئِ مَنْ لَهَبِ :

"السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ

في حدّه الحدّ بين الجدّ و اللّعب "

فسألْتُ :

" اتَحَفَظُ شِعْرَ أَبِي تَمَامً ؟ "

فَأَجَابَ - وَلَمْ يَنْطِقْ - :

" بَلْ أَحْفَظُ كُلَّ عُهُودِ كِتَابَاتِ الْأَقْلَامِ ... "

تَتَزَايِدُ فِي كِرَاسَةِ نَهْنِي

عَبْرَ تَصَارِيفِ الْأَعْوَامِ ... "

فِي آخِرِ حَظِّ دِفَاعٍ عَنِ شَرَفِ الْأَحْلَامِ ... "

أَوْ أَوَّلِ حَظِّ هُجُومٍ ضِدَّ خَفَافِيشِ الْإِظْلَامِ ... "

أَحْمِي بِالصَّارُوخِ الْعَرَبِيِّ الْمَسْجِدَ وَالْمَشْتَلِ ... "

أَسْتَشْرِفُ بِالْأَشْعَارِ غَدًا أَجْمَلُ ... "

فَهَتَفْتُ بِهِ :

" يَا فَارِسَ أَرْضِ الْعَرَبِ

اكَتُبْ تَارِيخَ الْمُسْتَقْبَلِ ... ! "

فَدَعَانِي كَيْ أَنْحَرَكَ نَحْوَ تِلَالِ الْعِزَّةِ فِي لُبْنَانَ ... "

أَبْصَرْتُ (مَارُونَ الرَّأْسِ) تَنْتَظِرُ

مِنِّي سُؤَالَ وَ الصُّبْحُ يَنْتَشِرُ

سَاءَ لَهَا عَنْ صُمُودٍ فِتْيَتِهَا

وَ كَيْفَ لِلْمَظْلُومِينَ قَدْ تَأْرُوا؟

أَجَابَنِي رَدُّ الْأَرْضِ مُبْتَسِمًا :

" بَأَنَّهُمْ بِالْإِيمَانِ قَدْ نَصِرُوا

وَ أَنَّهُمْ بِالْتَّحْرِيرِ قَدْ وَثِقُوا

وَ أَنَّهُمْ لِلْأَعْدَاءِ قَدْ خَبَرُوا

قَدْ أَقْبَلُوا سَعْيَ الْعِزِّ يَدْفَعُهُمْ

فَانْطَلَقُوا مِثْلَ السَّيْلِ يَنْحَدِرُ

قَدْ خَرَجُوا مِثْلَ الشُّهْبِ فَاخْتَرَفُوا

دُرُوعَ جَيْشِ الْأَعْدَاءِ يَنْدَجِرُ

مَا ضَرَّهُمْ مِنْ أَعْدَائِهِمْ صَلَفٌ

أَوْ سَلَّهُمْ خَوْفَ مَوْتِهِمْ حَذَرٌ

لَمْ يَمْنَعِ الْمَوْتَ جَرِيٌّ مَنْ هَرَبُوا

أَوْ قَصَرَ الْعُمُرَ صَبِيرٌ مَنْ صَبَرُوا !

لَقَدْ أَعَدُّوا لِلْحَرْبِ عُدَّتَهَا

لِذَا اسْتَجَابَ الْقَضَاءُ وَالْقَدَرُ "

رَدَّتْ عَلَيَّ التَّلَالُ شَامِخَةً

حَتَّى وَجَدْتُ السُّؤَالَ يَعْتَدِرُ !

(مَارُونُ الرَّأْسِ) تَقُولُ الشَّعْرَ وَكُلُّ الْكَوْنِ سَمَاعٌ . . .

وَالصَّوْتُ كَنُورِ الشَّمْسِ يُلَوِّنُ هَاتِيكَ الْأَصْقَاعُ . . .

فَتَجِييبُ بِرَغْمِ الْبُعْدِ الْفُؤْسُ . . . :

”نِدَاؤُكَ يَا (مَارُونُ) هَذَا كِيَانِي

فَتَنْتَعِشُ النُّجُمَاتُ بِاللَّمَعَانِ

نِدَاؤُكَ مَعْنَى لِلتَّحَرُّرِ قَائِمٌ

يُحَفِّزُ فِي نَسْلِي الْأَبِيِّ مَعَانِ

تَقُولُ دَوَاةُ الْحَبْرِ بَعْضَ دُمُوعِهَا

وَتُوشِكُ مِنْ حُزْنِ عَلِيِّ الْغَلِيَانِ

و يَرْفَعُ أَبْنَائِي الدُّعَاءَ لِرَبِّهِمْ

و يَرْفَعُ تَارِيخَ الْأَبَاءِ أَدَانِي

قِيُودٌ مِنَ الْأَعْرَابِ فَوْقَ سَوَاعِدِي

و مَا زِلْتُ فِي صَمْتِ الْأَبَاءِ أَعَانِي

و لَوُؤْمُ بَنِي الْأَعْمَامِ مِثْلُ كِمَامَةٍ

مِنَ الشَّوْكِ قَدْ أَمْسَتْ تُشِلُّ لِسَانِي

أَنَا الْقُدْسُ مَا قَسَمْتُ رَعْمَ عُهُودِهِمْ

يُوحِدُنِي التَّارِيخُ فَوْقَ مَكَانِي

حُدُودٌ مِنَ الْأَوْهَامِ سَوْفَ أَزِيلُهَا

لَتُصْبِحَ أَشْكَالًا مِنَ الْهَدْيَانِ

سَيَصْنَعُ شَيْئًا بَعْدَ شَيْئٍ مَقَاوِمًا

كَأَنَّ عَصُورَ الْقَيْدِ بَعْضَ ثَوَانٍ

أَمَارُونَ رَأْسِ الْعِزِّ بُشْرَاكِ قَدْ أَتَتْ

كَنَجْمٍ لِفُلْكَى فِي الظَّلَامِ هَدَانِي "

و انْبِرَى مِنْ خَلْفِ أَصْوَاتِ الْمَدَائِنِ . . .

مِثْلَ عَصْفُورٍ يُعْنَى لِلْأَمَاكِنِ . . .

لَفَّ كُوفِيَّتَهُ مِنْ حَوْلِ رَأْسِ تَحْمَلِ الْعِزْمِ الْعَنِيدِ . . .

عَلَّقَ (الْخَرْطُوشَ) فَوْقَ الْكَتِفِ الْيُمْنَى

كَمَا مَهَّدَ الْوَلِيدُ . . .

مُمْسِكًا فِي كَفِّهِ الْيُمْنَى حِجَارَةَ

و بِيُسْرَاهُ أَرَى الْمَقْلَاعَ كَاللَّحْنِ الْمَجِيدِ . . .

و عَلَى الْخَصْرِ حِزَامٌ نَاسِفٌ مِثْلُ حِجَابٍ

يَجْلِبُ الْحِطَّ السَّعِيدُ ! . . .

وَبَدَا (صَارُوخٌ قَسَامٍ) عَلَى الْكَتِفِ الشِّمَالِ . . .

مِثْلَ لَيْثٍ مِنْ حَدِيدٍ . . .

قُلْتُ :

" يَا ابْنَ الْقُدْسِ مَا هَذَا السَّلَاحُ ؟ "

قَالَ :

" (حُرْطُوشَةٌ) جَدِّي . . .

و حِجَارَاتُ وِلْدَانِي . . . "

قُلْتُ :

" عَفْوًا . . . وَلِمَاذَا ؟ "

قَالَ :

" مِيرَاثُ الْبُطُولَاتِ

و ذِكْرِي الْعِزِّ فِي الْمَاضِي التَّلِيدِ . . . !

لَيْسَ فِي الْأَمْرِ جَدِيدٌ . . .

أَنْ تَرَى الْجَدَّ الشَّهِيدَ . . .

و كَذَا صَارَ الْحَفِيدُ . . . !

و أَنَا أَكْتُبُ دَرَسًا مِنْ دَوَاةٍ

حَبْرُهَا مِنْ نُورِ هَدْيِ الشَّمْسِ . . .

يَسْتَطِيعُ الْمُسْتَقْبَلُ الْمَشْرِقُ فِيهِ مِنْ ضِيَاءِ الْأَمْسِ . . . "

قُلْتُ :

" قُلْ لِي ...

هَلْ عَرَفْتَ النَّصْرَ يَوْمًا ... ؟ "

قَالَ :

" إِنِّي قَدْ عَرَفْتُ النَّصْرَ مَرَّاتٍ عَدِيدَةً ...

مَرَّةً حِينَ جَعَلْتُ الْأَرْضَ لِلنَّاسِ عَقِيدَةً ...

وَكَذَا حِينَ رَفَضْتُ الْقِلَّةَ الْحَمَقَاءَ

قَدْ أَمَسَتْ بِدُلِّي مُسْتَفِيدَةً ...

وَكَذَا حِينَ بِيَوْمِي صُنْتُ مِيرَاثَ الْجُدُودِ ...

أَيُّهَا الشَّاعِرُ فَاسْمَعْ ...

عَادَ جَدِّي مِنْ قِتَالِ رَاكِبًا فَوْقَ حِصَانِهِ ...

عَادَ مَقْتُولًا وَنَالَ الْأَبْدِيَّةَ ...

وَكَذَا كَانَ وَلِيْدِي ...

كَانَ فِي قَذْفِ الْحَجَارَاتِ بَرَاعَةً ...

وَتَحَلَّى - رَحْمَةً اللَّهِ عَلَيْهِ - بِالشَّجَاعَةِ ...

كَلَّمَا شَاهَدَ دَبَابَةَ أَعْدَاءِ الْوَطَنِ ...

ظَنَّهَا فَرَاغَةً ! ... !

وَصَوَارِيخُ الْأَعَادِي لَا تَهَابُ الْمَدْرَسَةَ . . .
لَا تَهَابُ الْبَيْتَ وَالْمَسْجِدَ أَوْ سَيَّارَةَ الْإِسْعَافِ
أَوْ حَافِلَةَ الْأَطْفَالِ

أَوْ مَشْفَى صَغِيرٍ . . . !
هَلْ رَأَتْ عَيْنُكَ صَارُوحًا لَهُ بَعْضُ ضَمِيرٍ . . . !?
نِصْفُ قَرْنٍ بَلْ يَزِيدُ . . .
نِمْتُ فِي الْخَيْمَةِ لَكِنْ . . .
كُنْتُ أَحْلَمُ . . . !
كُلُّ أَشْوَاقِي وَ أَحْلَامِي خِيُولٌ . . .
وَرَكِبْتُ الْخَيْلَ نَحْوَ الْعِزِّ فِي تِلْكَ الْحُقُولِ . . .
وَإِذَا اسْتَيْقَظْتُ أَلْقَى الْحُلْمَ مُلْقَى
فَوْقَ هَاتِيكَ الْوَسَادَةَ . . .
إِنَّمَا الْحُلْمُ عِبَادَةٌ . . . !
إِنَّهُ يُشْرِي السَّعَادَةَ . . .
إِنَّمَا النَّصْرُ بَأَنْ تَفْهَمَ قَانُونَ الْحَيَاةِ . . .
كُلُّ أُمَّ فِي بِلَادِي حَبَّاتُ أَكْفَانِ أُنْبَاءِ
كَمَا مُسْتَلْزَمَاتِ الْبَيْتِ

أَوْ أَعْرَاضَ طِفْلِ الْمَدْرَسَةِ...!
وَمَقَاسُ الْكَفَنِ الْمَخْبُوعِ فِي لُرْجِ الْهُمُومِ...
كُلَّ عَامٍ صَارَ أَكْبَرَ...
وَأِذَا مَاتَ الْوَلَدُ...
خَرَجَتْ كُلُّ الزَّعَارِيدِ كَأَطْيَارِ حَبِيسَةٍ...!
خَرَجَتْ صَرَخَةً جَدَعٍ فَارَقَ الْأَرْضَ
وَلَمْ يَتْرُكْ جُدُورَةَ...
كُلُّ يَوْمٍ عِنْدَنَا أَلْفُ مَخَاضٍ
و (سُبُوعِ)
وَجِنَازَةٌ...!
طَائِرُ الْمَوْتِ مُقِيمٌ عِنْدَنَا
لَا لَيْسَ يَحْظَى بِإِجَازَةٍ...!
إِنَّمَا النَّصْرُ بِأَنْ تَحْيَا بِلَا أَيْ وَجَلْ...
مِثْلَ مَنْ يَقْطَعُ سَيْفًا بِظُلْمِ رَأْسِهِ
لَكِنْ يَقُومُ...
يَحْمِلُ الرَّأْسَ وَيَمْضِي لِلْعَمَلِ...!
يَشْحَدُ السَّيْفَ عَلَى نَظْرَةِ عَزْمٍ حَجْرِيَّةٍ...!

أَيُّهَا الشَّاعِرُ أَخْبِرْ كُلَّ تِلْكَ البَشَرِيَّةِ ...
قِصَّةُ الحِقْدِ بِأَرْضِي امْتَلَأَتْ
حَتَّى الحَوَافِ الأَزَلِيَّةِ ...

و كَذَا نَهَرْتُ أَرِي
فَاضَ مِنْ فَوْقِ الضَّفَافِ السَّرْمَدِيَّةِ ...
أَيُّهَا الشَّاعِرُ فَاغْلَمْ ...
ثُمَّ عَلَّمْ ...
إِنَّمَا النَّصْرُ بِأَنْ تَحْيَا القَضِيَّةَ ...!!
ثُمَّ غَابَ ...
و أَنَا أَسْمَعُ كُلَّ الكَوْنِ تَرْدِيداً لِآيَاتِ الجَوَابِ ...

* * *

(بِئْتُ جُبَيْلَ) تَشْتَاقُ مَنْ رَحَلُوا

و اسْتَقْبَلَتْ بِالْأَحْضَانِ مَنْ وَصَلُوا

تَقُولُ: إِنَّ الْأَحْبَابَ قَدْ قُتِلُوا

لَكِنَّهُمْ فِي الْأَعْدَاءِ قَدْ قَتَلُوا !

تَدْعُو لَهُمْ بِالرَّحْمَاتِ فِي سَحْرِ

نَحْوَ إِلَهِ الْأَكْوَانِ تَبْتَهَلُ

تُخْبِرُنِي عَنْ أَسْرَارِ دَمْعَتِهَا

تَعْبِيرُهَا فِيهِ الْحُبُّ وَالْخَجَلُ

تَقُولُ: "قَالَ الْأَعْرَابُ إِفْكَهُمُ

لَكِنَّ أُنْبَانِي الْغُرُ قَدْ فَعَلُوا"

تَقُولُ: "إِنَّ الْأَجَالَ قَدْ قَدِرْتَ "

وَالشَّعْرُ لَحْنٌ فِي اللَّيْلِ يَكْتَهَلُ

قُلْتُ لَهَا: جَيْشُ الْعَرَبِ مُؤْتَمِرٌ

بِقَادَةِ لِلْأَعْدَاءِ قَدْ عَمِلُوا

مَا زَادَهُمْ حِينَ الْمَدْحِ مَنْ مَدَحُوا

أَوْ ضَرَّهُمْ حِينَ الْعَدْلِ مَنْ عَدَلُوا !

(بِنْتُ جُبَيْلٍ) تُصْغِي لِأَزْمَتِنَا

قَالَتْ وَبَعْضُ الْأَقْوَالِ يُرْتَجَلُ

"لَا بُدَّ مِنْ حَدِّ السَّيْفِ يَقْتُلُهُمْ

وَالْخَيْرُ يَأْتِي لِلنَّاسِ لَوْ قُتِلُوا !"

تَتَكَلَّمُ (بِنْتُ جُبَيْلٍ) فَالْأَكْوَانُ غَدَتِ آذَانُ . . .

تَتَلَّوْ سَفَرَ التَّكْوِينِ تَرْتَلُ بَعْضًا مِنْ آيِ الْقُرْآنِ . . .

يَمْتَدُّ الصَّوْتُ بِحَجْمِ تَوَارِيخِ الْأَزْمَانِ . . .

و يَرُدُّ الصَّوْتُ الْقَادِمُ مِنْ عَمَانَ :

"و دَمَعٌ عَلَى خَدِّ التَّلَالِ هَتُونُ

و تَفْتِكُ بِي عَبْرَ الظُّنُونِ ظُنُونُ

و أَيُّ ظُنُونٍ وَ الْخِيَانَةَ أَشْهَرَتْ

لْتَهْتِكَ لِلسَّعْبِ الْأَبِيِّ عَيْونُ

يُرَدِّدُ بُوْقُ الْقَصْرِ لَحْنَ عَدُونَا

فَتَقْتُلُنَا نَحْنُ الْأَبَاةَ لِحُونُ

و يَلْمَعُ تَاجُ الْمَلِكِ فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ

و تَزْدَادُ فِي بَيْتِ الْفَقِيرِ دُيونُ

تُسْنُ قَوَانِينُ الْمَدَلَّةِ فَوْقَنَا

فَتَزْدَادُ قَضْبَانُ لَنَا وَ سُجُونُ

أَبْنَتْ جُبَيْلٍ قَدْ تَعَاقَبَ فَوْقَنَا

سَلَالَاتُ خُوَّانٍ تَخُونُ تَخُونُ

أُنَادِيكَ يَا بِنْتَ الْجَنُوبِ وَثَوْرَتِي

يُغَطِّي نُهُوضَ الْأَسَدِ فِيهَا سُكُونُ

هُوَ السَّيْفُ لِلتَّحْرِيرِ نَهْجٌ مَوْحَدٌ

يَكُونُ شُرُوقُ الْفَجْرِ حَيْثُ يَكُونُ "

قَالَتْ عَمَّانُ ...

فَتَأَلَّمَتِ الْأَكُوَّانُ ...

وَأَنَا مَا زِلْتُ أُسِيرُ بِرِكْبِ الشَّامِخِ

نَحْوَ خُلَاصَاتِ الْأَزْمَانِ ...

نَحْوَ الْإِمْكَانِ ...

وَوَجَدْتُ أَمَامِي شَخْصًا كُلُّ شُحُوبِ الْكَوْنِ عَلَيْهِ

و يَنْظُرُ لِي ...
يَتَأَمَّلُ فِي بَعَيْنِ الْحَيْطَةِ وَ الْحَدَرِ ...
وَ مَلَابِسُهُ قُدَّتْ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ...
يَبْدُو عُصْفُورًا ضَلَّ السَّرْبَ بِطَقْسٍ مَطْرُ ...

فَسَأَلْتُ بِلَهْجَةِ إِشْفَاقٍ :

” مَنْ أَنْتَ ؟ ”

فَأَجَابَ :

” أَنَا مَحْضُ أُسَيْرٍ ...
العَظْمُ نِهَائِيَّتُهُ تَكْسِيرٌ ...
هَذَا لَحْمِي يَبْدُو قِطْعًا قِطْعًا ...
وَ الشَّيْءُ الْأَسْوَدُ فَوْقَ حِزَامِي ...
أَثَارُ الْجَنْزِيرِ ...
لَا تَبِكْ عَزِيزِي ...
لَا تَتَجَمَّلْ ...
لَا تَبْدَأْ فِي أَشْكَالِ التَّأْثِيرِ ...
لَوْ كَانَتْ تِلْكَ دُمُوعَ الصِّدْقِ
لَكُنْتُمْ طَالِبَتُمْ بِالثَّأْرِ لِمَقْتَلِنَا ...

أَوْ حَتَّىٰ بِالذِّبْيَةِ الْمَلْعُونَةِ
يَا مَنْ أَشْعُرُ أَنَّ دَمِي فِي أَعْيُنِكُمْ
مَوْضُوعٌ جِدُّ صَغِيرٌ ...!
قَدْ كَانَ الْأَجْدَىٰ أَنْ أَقْضِي فِي حَادِثِ سَيِّرٍ ...!

عَادَتْ سَيِّئَاءٌ عَلَىٰ جُثَّتِ الْأَسْرَىٰ الْبِرَاءِ ...
و نَسِيْتُمْ أَيْنَ تَكْوَمَتِ الْأَشْلَاءُ ...
عَادَتْ سَيِّئَاءٌ ...
و كَأَنَّ جَمَاجِمَنَا أَمْسَتْ أَحْجَارًا لِلتَّعْمِيرِ ...
و كَأَنَّ لُحُومَ الْأَسْرَىٰ أَمْسَتْ مِثْلَ سَمَادٍ لِلتَّشْجِيرِ ...!
أَنْسِيْتُمْ أَنَّ عِظَامِي تَمَلَأُ هَاتِيكَ الْأَفْيَاءُ ...؟
عَشْرَاتُ الْأَلْفِ الْمَذْهُوسَةِ أَعْظَمُهُمْ
تَحْتَ الذَّبَابَةِ فِي تِلْكَ الصَّحْرَاءِ ...
مَا فَكَّرْتُمْ أَنْ تَبْنُوا نُصْبًا تَذْكَارِيًا
يَرْمِزُ لِلْأَسْرَىٰ الْأَمْوَاتِ وَ أَنْتُمْ كَالْأَسْرَىٰ الْأَحْيَاءِ!
طَابُورُ الْأَسْرِ الْعَارِ ...
عُومِلْتُ بِهِ كَذَّبَابَةٍ ...!
و حَفَرْتُ الْقَبْرَ لِأَلْقَىٰ فِيهِ

وَقُوَّةُ الرَّشَّاشِ عَلَى رَأْسِي ...
وَالْعَزْمُ أَنْهَارُ ...
وَدُفِنْتُ بِذَاكَ الْقَبْرِ بِيَدُونَ طُقُوسٍ
بَعْدَ تَدْوُقِ جَنْزِيرِ الدَّبَابَةِ ...!

كَمْ كُنْتُ أَظُنُّ النَّصْرَ كَقَصْرِ أُدْخِلُهُ
مِثْلَ الْبَطْلِ الْمِعْوَارِ ...
وَبَدَأَ لِي آخِرَ أَمْرِي قَصْرًا يُوصِدُ بَابَهُ ...!
فَمَسَحْتُ دُمُوعِي التُّهْمَةَ ...!
وَشَعَرْتُ بِأَنَّ النَّصْرَ تَحَوَّلَ نِقْمَةً ...!
وَسَأَلْتُ وَنَفْسِي تَرَعْبُ فِي الْحِكْمَةِ :
" هَلْ تَعْرِفُ مَعْنَى النَّصْرِ ؟ "
فَأَجَابَ بِصَوْتِ كَالْمَاضِي الْعَائِدِ ...
وَبِرُوحِ كَالْفَائِي الْخَالِدِ ...
وَبِحُبِّ أَخٍ ...
وَبِتَلْقِينِ الْوَالِدِ :
" النَّصْرُ بِأَنَّ تَجِدَ الْقَائِدَ ...!
لَا أَنْ تَقْضِيَ عَطَشًا أَوْ تَحْتَ الْقَصْفِ

بِحَرْبٍ مِنْ طَرْفٍ وَاحِدٍ!

فَازِدَادَتْ كُلُّ مَعَايِي النَّصْرَ غُمُوضًا فِي بَصْرِي...
و شَعَرْتُ بِأَنَّ الْحَيْرَةَ فِي الدُّنْيَا أُمَسْتُ قَدْرِي...
و أَنَا أَتَشَبَّهْتُ فِي كَفِّ الْجَبَّارِ الْبَالِغِ طُولَ الْأَرْزِ.

كَطِفْلٍ يُمَسِّكُ كَفَّ أَخِيهِ الْأَكْبَرِ.

حِينَ غُبُورِ الشَّرَاعِ فِي الْمَطَرِ... .

و يَقُولُ الْفَارِسُ:

" لَا تَيَأْسُ... "

فَمَعَايِي النَّصْرَ عَدِيدَةً!

و تَعَالَ لِنُكْمِلَ رِحْلَتَنَا فِي (عَيْنَا الشَّعْبِ)... "

* * *

حَلَلْتُ فِي (عَيْنَا الشَّعْبِ) مُبْتَسِمًا

و الْقَلْبُ يَبْدُو لِلْعَيْنِ مُنْقَسِمًا

فَنِصْفُهُ فِي الْأَفْرَاحِ مُنْغَمِسٌ

و نِصْفُهُ بِالْأَحْزَانِ قَدْ قُصِمَا

تَقُولُ لِي - وَالشُّجُونُ تَخْنُقُهَا-

أَمْسِكْ بِحَبْلِ الرَّحْمَنِ مُعْتَصِمًا

مَا قَتَلْتَ تِلْكَ الْحَرْبُ مَنْ مَكْتُوا

و لَا أَفَادَ الْهُرُوبُ مَنْ سَلِمَا!

حَدَقْتُ فِي شَكْلِ جُرْحِ دَمْعَتِهَا

وَجَدْتُ حَقْلًا لِلزَّهْرِ فِيهِ نَمَا

سَجَدْتُ سُكْرًا لِلَّهِ يَدْفَعُنِي

شُعُورُ حُبِّ اللَّهِ قَدْ رَحِمَا

فَفَتَحَتْ فَوْقَ الْأَرْضِ سُنْبُلَةً

كَأَنَّمَا بَيْتُ اللَّهِ مَا هُدِمَا

و جَاوَبْتَنِي مِنْ دُونِ أَسْئَلَةٍ :

"لَا تَرْزَحُوا تَحْتَ حُكْمٍ مَنْ ظَلَمَا "

و لِنَتَّعَسِلُوا وَجَهَ الصُّبْحِ لَوَثَّهُ

عَرْشٌ لِمَنْ لِلْأَعْدَاءِ قَدْ خَدَمَا

فَإِنَّمَا يَأْتِي النَّصْرُ مُؤْتَلِقًا

لِمَنْ رَأَى حُكْمَ الظُّلْمِ فَإِنْتَقَمَا "

تَتَكَلَّمُ (عَيْنَا الشَّعْبِ) بِصَوْتِ لِلسَّمَاعِ جَرَحٌ . . .

و الصَوْتُ لَذَاكَ الْجَرَحِ شَرَحٌ . . .

و تُجِيبُ دِمَشْقُ بِصَوْتٍ مُمْتَدِّ الْآهَاتِ كَقَوْسٍ قُزَحٍ :

" نِدَاؤُكَ (عَيْتَا الشَّعْبِ) قَدْ جَدَّدَ الْعَهْدَا

و تِلْكَ جُحُوفُ الْعِزِّ مَا قَصَّرَتْ جَهْدَا

كَأَنَّكَ وَ الْبُنْيَانُ فِيكَ مُهَدَّمٌ

ذِرَاعُ عِصَامِيٍّ وَ سِجْنٌ قَدْ انْهَدَا

أَنَا الْمَجْدُ قَدْ أَمْسَى فِنَاءً لَضِيْعَتِي

زَرَعْتُ بِهِ شِعْرًا فَأَتْحَفَنِي وَرَدَا

عَدُوِّي مَهْزُومٌ عَلَى كُلِّ حَالَةٍ

يُفَاجِنُنِي بَرَقًا فَأَرْعِبُهُ رَعْدَا

حَنَانِيكَ "عَيْتَا الشَّعْبِ" أَيُّ طَرِيقَةٍ

بَهَا يَضَعُ الْأَحْرَارُ لِلْمُقْتَرِي حَدًّا

أَعَانِي عَيْونًا تَسْتَبِيحُ مَحَارِمِي

و تَرَصُّدًا مَا أَخْفَى الضَّمِيرَ وَ مَا أَبَدَى

و يَسْتَأْسِدُ الثَّوْرِيُّ فَوْقَ أَحِبَّتِي

و مَعَ تِلْكَمُ الْأَعْدَاءِ تَحْسِبُهُ عَبْدًا

حَنَاتِيكَ إِنِّي فِي الْقِيُودِ مُقِيمَةٌ

تَنَاسَلَ قَيْدٌ فِيَّ أَوْرَثَنِي قَيْدًا

فَكَيْفَ وَ ذَاكَ الْحَالُ تَبَدُّأً نَهَضْتِي

وَ كَيْفَ وَ ذَاكَ الْحَالُ قَدْ أْبْلُغُ الْمَجْدَا؟"

وَ وَجَدْتُ أَمَامِي شَخْصًا آخَرَ يَنْظُرُ نَحْوِي

يَدْعُونِي لِجَوَارٍ . . .

يَبْدُو لِلْعَيْنِ كَمَا الْبَيْتِ الْمُنْهَارُ . . .

و نَيَّاشِينَ تَتَأَلَّقُ فَوْقَ الصَّدْرِ كَمَا الْأَنْوَارُ . . .

فَسَأَلْتُ :

” مَنْ أَنْتَ ؟ ”

فَأَجَابَ :

أَنَا مَنْ عَبَرْتُ مِنَ الْمَحَالِ إِلَى الْمَحَالِ

مِنْ فَوْقِ أَمْوَاجِ الْكِرَامَةِ فِي الْقِنَالِ

نِصْفُ النَّزِيفِ بِذِي الْقِنَاةِ أَسَلْتُهُ

و النَّصْفُ فِي سَيْنَاءَ قَدْ رَوَى الرَّمَالَ

رَجُلَايَ فِي سَيْنَاءَ تَعْرِفُ أَنَّهَا

مِنْ قَبْلِ قَدْ سَارَتْ عَلَى تِلْكَ التَّلَالِ

فَسَأَلْتُهُ : هَلْ مِتَّ حِينَ عُبُورِنَا ؟

أَمْ مِتَّ مِنْ كَمَدٍ عَلَى مَوْتِ الرَّجَالِ ؟

فَأَجَابَ بَلْ قَدْ مِتُّ مَعَ إِمْضَائِنَا

فَوْقَ الْوَثِيقَةِ بَعْدَ تَجْرِيمِ الْقِتَالِ !

” تُرِيدُ أَنْ تَعْرِفَ كَيْفَ مِتُّ ؟

فَأَسْمَعْ إِذَا لِهَذِهِ الْقِصَّةِ :

ذَاتَ مَسَاءٍ ...

دَاهَمَنَا الْخَرِيفُ ...

لَكِنْ بِحَمْدِ اللَّهِ فَاجَأَنَا بِالرَّبِيعِ

خُبَّانَاهُ فِي مَعَاطِفِ الشِّتَاءِ ...

ذَاتَ مَسَاءٍ ...

دَاهَمَنَا السَّيْفُ ...

لَكِنْ بِحَمْدِ اللَّهِ فَاجَأَنَا بِالذُّرُوعِ

خُبُّبْتُ بِجُوفِ مَخْزَنِ الْإِبَاءِ ...

ذَاتَ مَسَاءٍ ...

ذَاهَمَنَا احْتِلَالٌ ...

لَكِنَّ بِحَمْدِ اللَّهِ فَاجَانَاهُ بِاسْتِقْلَالِنَا

مُخَبَّأً فِي زُرْقَةِ السَّمَاءِ ...

ذَاتَ مَمَاتٍ ...

ذَاهَمَنِي الرَّئِيسُ ...!!!

لَكِنَّ لِسُوءِ الْحِظِّ لَمْ أَمْلِكْ سِوَى صَدْرِي ...

وَمَتُّ مِثْلَمَا تَمُوتُ فَوْقَ الْكَفِّ

حُمْرَةَ الْحِنَاءِ ...!!

وَوَاصَلَ الْكَلَامَ عَبْرَ الصَّمْتِ ثُمَّ ابْتَدَأَ الضَّحْكَ :

" شَيَّعْتُ فِي جِنَازَةٍ تَمَلُّوْهَا الْعَسَاكِرُ ...

نَعَشٌ جَمِيلٌ ...

تَجْرُهُ الْخَيُْولُ ...

وَالْكُلُّ يَضْحَكُ ...!

لَا تَنْدَهَشْ ...

فَكُلُّ شَيْءٍ حَوْلَنَا مُضْحِكٌ ...!

غَنَاوْنَا لِلْأَرْضِ مُضْحِكٌ ...

وَسَعِينَا لِلرِّزْقِ مُضْحِكٌ ...

تَعْلِيمَنَا التَّارِيخَ لِلأَطْفَالِ مُضْحِكٌ ...

شِرَاؤُنَا السَّلَاحَ لِلجُيُوشِ بِاسْمِ السَّلَامِ مُضْحِكٌ ...

وَجَيْشُنَا أَصْبَحَ فِي القِيُودِ مُضْحِكٌ ...

الشَّعْرُ مُضْحِكٌ ...

وَالنَّثْرُ مُضْحِكٌ ...

جِرَانِدُ الصَّبَاحِ تَضْحِكُ ...

صِيَامُنَا ...

قِيَامُنَا ...

تَسْبِيحُنَا وَذِكْرُنَا ...

صَلَاتُنَا ...

إِيمَانُنَا بِاللَّهِ مُضْحِكٌ ...!!!

حَتَّى أَنَا فِي النَّعْشِ كُنْتُ أَضْحِكُ ...!

سَأَلْتُهُ :

" إِنْ لِمَاذَا هَذِهِ الدُّمُوعُ ؟ "

فَقَالَ :

" أَمْرٌ وَاحِدٌ يَدْفَعُ لِلبُكَاءِ كَالْمَفْجُوعِ ... "

فَقُلْتُ: " مَا هُوَ؟ "

فَقَالَ:

" إِنَّهُ الضَّحِكُ! "

ثُمَّ مَضَى يَسْأَلُنِي:

" هَلِ الْعُرُوبَةُ اخْتَفَتْ مِنَ الْوُجُودِ؟ "

لَمْ يَبْقَ مِنْهَا غَيْرُ ضَوْءِ نَجْمَةٍ

أَتَى لِأَرْضِي مِنْ بَعِيدٍ ...

لِكِنَّهَا قَدْ فَنِيَتْ مِنْ أَلْفِ عَامٍ أَوْ يَزِيدٍ ...!

يَا أَيُّهَا الشَّاعِرُ الْمِصْرِيُّ ...

نَكَادُ نَدْعُو اللَّهَ بِالْعِبْرِيِّ ...!

وَاللَّهُ إِنِّي أَصْرُخُ بِالْعَرَبِيِّ ...

وَصْرُخْتِي تَكْعَيْبَةً لِلْفُلِّ

فَوْقَهَا تُغْرَدُ الطُّيُورُ بِالْبُكَاءِ ...

الشَّعْبُ تِلْكَ الْخَلْطَةُ الْبَشَرِيَّةُ ...

قَوْمُوا وَقُولُوا: (لا) ... "

قُلْتُ لَهُ:

" أَنْتُمْ تَحُوزُونَ السَّلَاحَ "

وَالشَّعْبُ أُعْزِلَ...!"

فَقَالَ :

" لا ...

لَوْ قَالَ ذَاكَ الشَّعْبُ : (لا)

سَوْفَ تَرَانِي قَمْتُ مِنْ قَبْرِي أريدُ أَنْ أريدُ...!

بِدُونِ أَنْ أَخَافَ أَنْ أريدُ...!

يَا أَيُّهَا النَّاسُ انْقِدُونِي وَانْقِدُوا أَنْفُسَكُمْ ...

فَالتَّاجُ فَوْقَ رَأْسِ ذَاكَ الدَّعِيَّ تَاجٌ ثَلَجٌ...!

يَا أَيُّهَا الشَّعْبُ أَفِقْ ...

وَاصْرُخْ بِوَجْهِهِ كَالْعَصَافِيرِ : اسْتَفِقْ...!

يَا أَيُّهَا النَّاسُ ...

تَخَارَجُوا مِنْ جُبُنِكُمْ وَحُزْنِكُمْ وَذُلِّكُمْ...!"

وَ بَعْدَهَا رَأَيْتُهُ قَدْ عَادَ يَضْحَكَ ...!

سَاءَلْتُهُ :

" تَرَاكَ قَدْ عَرَفْتَ مَعْنَى النَّصْرِ ؟ "

فَقَالَ لِي :

نَصُّ مِنَ الزُّورِ بِالْقِرْطَاسِ وَالْقَلَمِ
أَحْلَ سَفْكَ دَمِي فِي هَيْئَةِ الْأَمَمِ

و فِي حَدِيقَةِ بَيْتِ أبيضِ كُتِبَتْ
و ثِيْقَةُ الرَّجْسِ وَالْإِدْلَالِ وَالنَّدَمِ

غَيْرِ خَرَائِطِ أَرْضِي فِي مُعَاهَدَةِ
تُلْغِي عُرُوبَتَنَا فِي صَالِحِ الْعَجَمِ

و اَمْنَحْ عَدُوَّ تُرَابِ الْأَرْضِ بُغْيَتَهُ
مِنْ مَاءِ نَيْلٍ بِدَعْوَى السَّلْمِ وَالْكَرَمِ

أَكْرَمُ وَفَادَتَهُمْ مَعَ كُلِّ نَائِبَةٍ

فِي قَصْرِ مُلْكِكَ أَوْ فِي سَاحَةِ الْهَرَمِ

طَبَّعَ خُضُوعًا ، وَ جَوَّعَ كُلَّ مَنْ عَبَّرُوا

وَ انْزَعَ سِلَاحَكَ ، وَ اقْطَعْ حُرْمَةَ الرَّحِمِ

فَهَتَفَتْ :

" وَ لَكِنْ جَاءَ رَئِيسٌ آخِرٌ... ! "

فَأَجَابَ يَقُولُ :

" وَ اسْتَبَدَلَ النَّاسُ أَفَاقًا بِأَفَاقِ

الدَّاءِ فِينَا وَ لَيْسَ الْعَيْبُ فِي الرَّاقِي !

بِصَائِرٍ عَمِيَّتْ مِنْ طُولِ غَفْلَتِهَا

وَ لَيْسَ يَنْفَعُهَا فَتْحُ لِأَحْدَاقِ !

لا تَفْرَحُوا بِرئيسِ بَاتٍ مُرْتَحِلًا

غَابَ البَغِيضُ و لَكِن نَسَلُهُ بَاقٍ !

هَآ قَدْ مَضَى ظَالِمٌ فَرَدَّ بِلَا سَنَدٍ

و نَهَجَهُ جَائِمٌ يُوْدِي بِأَعْنَاقٍ !

الظُّلْمُ نَارٌ و مَاءُ العَدْلِ يُطْفِئُهَا

و النَّاسُ قَدْ بَدَّلُوا حَرَقًا بِأَحْرَاقٍ !

قَوْمٌ قَضُوا عُمْرَهُمْ فِي كَأْسِ حَمْرَتِهِمْ

و حِينَ رَامُوا نُهُوضًا غَيَّرُوا السَّاقِيَّ ! "

و تَرَاجَعَ نَحْوَ الحَزْنِ

و مَا زَالَتْ دَمَعَاتُ فَوْقَ الخَدِّ تَسِيلُ ...

و كَذَلِكَ ضِحْكُهُ تَتَرَدَّدُ

تَطْرُقُ سَمْعِي كَالإِزْمِيلِ ...

و جَوَارِي ذَاكَ الشَّامِخُ يُمَسِّكُ كَفِّي ثُمَّ يَقُولُ :
" تَمَاسِكَ ... "

أَنْتَ الْآنَ سَتَدْخُلُ (قَانَا) !... !

* * *

(قَانَا) بَكَتْ وَ الْأَصْقَاعُ تَنْتَحِبُ

بُكَأُوهَا فِيهِ الْحُزْنَ وَ الْغَضَبُ

الْقَبْرِ مِنْ فَوْقِ الْقَبْرِ فِي بَلَدِ

أَمْسَى ضَرِيحًا لِلْعَيْنِ يَنْتَصِبُ

مَدْبَحَةً جَاءَتْ فَوْقَ مَدْبَحَةٍ

فَالنَّارُ مِنْ فَوْقِ النَّارِ تَلْتَهَبُ

شَوَاهِدُ الْقَبْرِ الضَّخْمِ وَاقِفَةٌ

تَنْظُرُ لِي وَ الْأَفْكَارُ تَضْطَرِبُ

قَدْ صَرَخَتْ ذِي الْأَطْفَالِ فِي عَرَبِ

وَمَا أَتَاهُمْ فِي الْمِحْنَةِ الْعَرَبُ

كَأَنَّهُمْ وَ الْأَنْقَاضُ فَوْقَهُمْ

أَحْيَاءُ لَكِنْ فِي الطَّيْنِ قَدْ لَعِبُوا

لَمْ تُخَفِ كَفًّا لِلْمَوْتِ حُسْنَهُمْ

وَ ذَا الْعَمْرِي أَمْرٌ لَهُ الْعَجَبُ!

قَدْ دُفِنُوا ثَوْبُ النَّوْمِ حُلَّتْهُمْ

لَكِنَّهُمْ ثَوْبَ الْعُمْرِ قَدْ سَلَبُوا

تَقُولُ (قَانَا) وَ الْمَوْتُ يَخْنُقُهَا :

" النَّصْرُ رَعْمَ التَّقْتِيلِ يَقْتَرِبُ

لَمْ يُنْقِصِ الْعُمَرَ صَبْرٌ مَنْ صَبَرُوا

أَوْ أَجَلَ الْحَتْفِ جَرِي مَنْ هَرَبُوا ! "

و تطيرُ حُرُوفُ قَالَتْهَا (قَانَا) كَسَحَابٍ ...

تَتَكَتَّفُ قَطْرَاتٍ مَطَرًا ...

و يَرُدُّ عَلَى (قَانَا) صَوْتٌ بِجَوَابٍ ...

مِنْ أَرْضِ (الْقَاهِرَةِ) الْمَحْبُوسَةِ فِي مِصْرَ :

" أَحِبُّكَ يَا (قَانَا) وَ قَتَلْتُكَ مِنْ قَتْلِي

وَ أَبْنَاؤُكَ الْأَبْرَارُ أَحْسَبُهُمْ أَهْلِي

أَرُدُّ نِدَاءً لِلضَّحَايَا بِأَدْمَعٍ

وَ أَقْرَأُ إِصْحَاحَ الْحَيَاةِ عَلَى مَهْلٍ

و قَدْ قِيلَ فِي الْمَاضِي : الِهُمُومُ إِذَا أَتَتْ
تُوحِّدُ أَهْلَ الِهَمِّ بِالْقَلْبِ وَ الْعَقْلِ

و قَدْ قِيلَ : إِنَّ التَّارَ دَيْنٌ مُوجَلٌّ
و قَدْ قِيلَ فِي أَمْثَالِنَا : الْقَتْلُ بِالْقَتْلِ

و نَيْلٌ عَلَى كَفَيِّ يَجْرِي كَأَنَّهُ
يَفِرُّ مِنَ الْأَمْرَاضِ وَ الْفَقْرِ وَ الْجَهْلِ

يَفِرُّ . . وَ لَا يَرْحَلُ رَعْمَ فِرَارِهِ
وَ يَشْكُو تَصَاريفَ الزَّمَانِ إِلَى النَّخْلِ

وَ قَاهِرَةٌ أَدْعَى وَ ذَاكَ لِأَنَّي
قَهَرْتُ بِرَعْمِ الضَّعْفِ جَيْشًا لِمُحْتَلِّي

و أدرك أن الحلَّ رهْنُ مَشِينَتِي
و أدرك أنني في احتياجٍ إلى حلٍّ !

و أدرك أن النَّدْلَ أصبحَ حَاكِمًا
و أن ذوي الخَوَدَاتِ تَفْتِكُ بِالْكُلِّ

و أعرفُ أنَّ القَصْرَ يَخْشَى تَحْرُكِي
و ذلكَ في عُرْفِي كَمُتَنِعِ سَهْلٍ

و أيقنْتُ أنَّ الحَرْبَ أمرٌ مُقَدَّرٌ
و أنَّ طَرِيقَ النَّصْرِ تَبْدَأُ بِالْعَدْلِ !"

و دَخَلْتُ مَقَابِرَ (قَانَا) مَشْدُوهاً
و الحُزْنَ تَمَلَّكَنِي ...
يَا وَاهِبَ صَبْرِ العَبْدِ الصَّابِرِ صَبْرِي ...
فالحُزْنَ عَلَى الشُّهْدَاءِ بِعُمُرِ الوَرْدِ يُجَنِّدُنِي ...
يَا مَانِحَ مَعْنَى الفُؤَّةِ للأخِيَارِ ...
إِنِّي - و أَمَامِي الأَرْضُ فُبُوراً
ضَمَّتْ أَطْفَالاً - أَنهَارُ ... !
إِنِّي أَتَحَوَّلُ دَمْعَةً ...
و رِيأَحُ الحُزْنِ بِقَلْبِي قَدْ هَبَّتْ مِثْلَ الإِعْصَارِ ...
و أَنَا لَا أَوْقِدُ شَمْعَةً ...
و بِدُونِ مُقَدِّمَةٍ أَوْ شَيْءٍ مِنْ إِنْذَارٍ ...
يَتَقَدَّمُ نَحْوِي أَطْفَالٌ بِثِيَابِ مَدَارِسِهِمْ
خَضِرَاءَ كَمَا الأشْجَارُ ...
مَسَحُوا دَمْعِي بِأَصَابِعِهِمْ قَدْ لَوَّتْهَا طِينٌ و غُبَارٌ ...

وَدَمٌ مِّنْ فَوْقٍ وَجُوهُهُمْ قَدْ سَالَ وَ سَالَ !
 فَسَأَلْتُ بِلَهْفَةٍ عَصْفُورٍ فَتَحَوُّوا قَفْصَهُ :
 " مِنْ أَيِّ بِلَادِ اللَّهِ أَتَيْتُمْ يَا أَطْفَالَ ؟
 مِنْ (قَانَا) ؟ "

قَالُوا - وَهُمْ مِنْ حَوْلِي دَائِرَةً - :

" بَلْ مِنْ بَحْرِ الْبَقْرِ ! "

و مَضَوْا فِي إِنْشَادٍ :

و الْعَدُوُّ قَدْ قَصَفَ الْجِمَامِ قَدْ قَذَفَ
 قَدْ بَدَا لِأَعْيُنِنَا لَيْسَ يَعْرِفُ الشَّرْفَ
 طَارَ فَوْقَ بِلَدَتِنَا قَدْ أَحَالَنَا نُتْفَا
 كَمْ لِكُلِّ مَجْزَرَةٍ ضِدْنَا قَدْ اقْتَرَفَ
 كَمْ أَبِ بَحْسَرَتِهِ لِلدَّمُوعِ قَدْ ذُرِفَ

و وَجَدْتُ صَبِيًّا آخَرَ يَرِكُضُ نَحْوِي ...

يَلْعَبُ غَمِيضَةً ... !

فَهَتَفْتُ بِهِ :

" مَع مَنْ تَلْعَبُ؟ "

فَأَجَابَ

بِأَنَّ الْعَيْشَ بِقَانَا

يَعْنِي أَنْ تَعْدُوَ الْغَمِيضَةَ جِدًّا لَا لِعِبَا ...!

لِعِبِ الْغَمِيضَةَ فِي (قَانَا)

أَنْ تُخْفِي نَفْسَكَ مِنْ صَارُوخٍ ...!

عَمُو... عَمُو...

هَلْ كُنْتَ صَغِيرًا يَوْمًا مَا؟

هَلْ جَرَبْتَ الْغَمِيضَةَ تَسْمَعُ صَوْتَ

الصَّارُوخِ الْمَقْدُوفِ عَلَيْنَا مُقْتَرِبًا؟

عَمُو... عَمُو...

هَلْ كُنْتَ بِيَوْمِ طِفْلًا يِرْعَبُ فِي إِدْرَاكِ

الْمَبْنَى الظَّاهِرِ فِي رَادَارِ الطَّائِرَةِ الْحَمَقَاءِ

لِكَيْ يَتَخَبَّى فِي الْمَبْنَى الْآخِرِ ...؟

الطَّفَلُ الشَّاطِرُ ...

مَنْ يَذْهَبُ لِلْمَبْنَى الْآخِرِ ...!

و الطَّفَلُ قَلِيلُ الْفِطْنَةِ - مِثْلِي -

مَنْ يَتَخَبَّى فِي الْمَبْنَى الْمَقْصُوفِ
وَيَأْتِيهِ الصَّارُوخُ يَقُولُ : (أَمْسَكَتُ بِكُمْ ... !
انْتَهتِ اللَّعْبَةُ ... !)

فَهَتَفْتُ بِهِ :

" كَمْ عُمْرُكَ ؟ "

فَأَجَابُ :

" قَبْلَ الْعَمِيضَةِ ... أَمْ بَعْدَ الْعَمِيضَةِ ؟ "

فَبَكَيْتُ ... !!!

وَرَفَعْتُ الرَّأْسَ لِأُبْصِرَ قُدَّامِي آفَافَ الْأَطْفَالِ

الْمَجْرُوحِينَ الْمَدْبُوحِينَ ... !

مِنْهُمْ مَنْ يَلْبَسُ زِيَّ تَلَامِيذِ الْكُتَّابِ ...

مِنْهُمْ مَنْ يَلْبَسُ زِيَّ النَّوْمِ ...

مِنْهُمْ مَنْ يَعْدُو فِي جِلْبَابِ ...

مِنْهُمْ مَنْ يَلْهُو دُونَ ثِيَابِ ...

مِنْهُمْ مَنْ يَبْدُو مِنْ أَطْفَالِ الْفَلَاحِينَ ...

مِنْهُمْ مَنْ يَبْدُو مِنْ طَبَقَاتِ الْكُدَّاحِينَ ...

مِنْهُمْ مَنْ يَزْحَفُ فَوْقَ الْأَرْضِ .

على أربع ...
منهم رضع ...
منهم من يعبت في لعب المخذغ ...
أطفال من (تل الرعتر) ...
يلهون كما الغزلان مع الفتيان
ولهجتهم من (بورسعيد) ... !
أطفال من (يافا)
يلهون مع الفتيان من (الأردن) ...
فتيات من (صبرا)
يعقدن ضفائر شعر عرائسهن ...
فتيات من (قانا) ...
من (بنت جبيل) ...
من (عبتا الشعب) ...
من (مارون الرأس) ...
أطفال عزيزنا آباءهم في (العامرية) ... !
أطفال مفقودون و أمست قصتهم منسية ...
أطفال قد وئدوا تحت الأنقاض.

فِدَاءٌ لِلأَرْضِ العَرَبِيَّةِ... !

شَاهَدْتُ أُلُوفَ الأَطْفَالِ المَوْسُومَةِ أَوْجُهُهُمُ

بِغُبَارِ القَصْفِ ...

دَمُ الأَطْفَالِ تَجَلَّطَ فَوْقَ مَلَابِسِهِمُ

و مَلَامِحِهِمُ ... !

لَكِنَّ الكُلَّ يُغْنِي غِنْوَةَ قُدَّاسٍ

كُورَالٍ بِلَابِلٍ :

و العَدُوُّ قَدْ قَصَفَ لِلحِمَامِ قَدْ قَدَفَ

قَدْ بَدَا لِأَعْيُنِنَا لَيْسَ يَعْرِفُ الشَّرْفَ

طَارَ فَوْقَ بِلَدَتِنَا قَدْ أَحَالَنَا نُتْفَا

كَمْ لِكُلِّ مَجْزَرَةٍ ضِدْنَا قَدْ اقْتَرَفَ

كَمْ أَبٍ بِحَسْرَتِهِ لِلدُّمُوعِ قَدْ ذُرِفَ

فَعَرَفْتُ بِأَنَّ دِمَاءَ ضَحَايَانَا كَالنَّهْرِ تَسِيلُ ...

و عَرَفْتُ بِأَنَّ سِجِلَّ ضَحَايَاهُمْ فِي القَتْلِ طَوِيلُ ...

و عَرَفْتُ بِأَنَّ دِمَاءَ ضَحَايَا (قَانَا)

ضَرْبَةً مِجْدَافٍ فِي بَحْرِ مِنْ تَقْتِيلٍ ...
و بَيَانَ الْأَطْفَالِ الْأَحْيَاءِ طُيُورُ
قَدْ أَلْقَتْ أَحْجَاراً مِنْ سِجِّيلٍ ...
و بَيَانَ دِمَاءِ الْأَطْفَالِ الْقَتْلَى
زَيْتُ الْقَنْدِيلِ ...

* * *

و أَفَقْتُ عَلَى كَفِّ الْمِغْوَارِ عَلَى كَتْفِي ...
و بِنَظْرَةٍ حُبِّ خَقَفَ مِنْ لَهْفِي ...
و أَشَارَ إِلَيَّ تَعَالَ لَكِي نَلْقَى السَّيِّدُ ...
و مَضَيْنَا ...
فَوَجَدْتُ جَوَارِي شَخْصاً
لَا أُدْرِي مِنْ أَيْنَ وَ كَيْفَ وَصَلُ ...؟!
الرَّيُّ جَمِيلٌ ...
و الشَّعْرُ - بَرَعْمِ الصَّلَاعَةِ - لِمَاعٌ وَ طَوِيلٌ ...
و الطَّرْفُ كَحَيْلٍ ...

يَبْدُو مِنْ رِقَّتِهِ غُصْنًا مَعَ أَيِّ نَسِيمٍ سَوْفَ يَمِيلُ . . .
بَلْ مَالَ عَلِيٍّ وَقَالَ :

" الْحَرْبُ تَضُرُّ . . . كَمَا التَّدْخِينُ . . .

هَلْ تَرَعْبُ فِي سِيَجَارٍ ؟ "

فَأَجَبَتْ :

" أَضْرَارُ الْحَرْبِ أَفْضَلُهَا عَنْ أَضْرَارِ التَّدْخِينِ !

إِنْ كُنَّا سَوْفَ نَمُوتُ . . .

فَلِمَاذَا لَا نَقْضِي بِجَسَارَةٍ . . .

بَدَلًا مِنْ أَنْ يُرْدِينَا دُخَانَ السِّيَجَارَةِ ؟ ! "

فَأَجَابَ وَقَدْ نَفَتْ الدُّخَانَ مِنَ السِّيَجَارِ

بشكْلٍ ثَائِرٍ :

" الْحَرْبُ مُعَامَرَةٌ كُبْرَى

كَعُبُورِ الصَّحْرَاءِ الْمَلْعُونَةِ . . . ! "

فَأَجَبَتْ :

" وَ هَلْ قَدْرٌ أَنْ يَهْلِكَ غَابِرُ تِلْكَ الصَّحْرَاءِ

الْمَلْعُونَةِ مِنْ عَطَشٍ ؟

يَا أَنْتَ . . .

تَأْكُدُ أَنَّكَ إِنْ أَدْرَكْتَ الشَّطَّ الْآخَرَ مِنْ شُطْنَانِ

النَّهْرِ فَإِنَّكَ لَمْ تَغْرَقْ!!

فَتَجَهَّمْ

ثُمَّ تَأْفَفْ مِثْلَ الْحَيَّةِ

ثُمَّ تَكَلِّمْ بِالصَّوْتِ الْمَسْمُوعِ :

" لَا تَخْرُجْ عَنْ حَدِّ الْمَوْضُوعِ ...

لَا تَحْلُمْ فِي الْمَمْنُوعِ ...

هَلْ تُنْكِرُ أَنَّ الْحَرْبَ أَصَابَتْنَا بِدِمَاعٍ قَدْ مُرِجَتْ

بِذَمِّهِ ...!!

فَأَجَبْتُ

" بَيَانَ الْحَرْبِ كَمَا تَوَقَّيْتُ الْبَلَدَةَ

لَا تَسْتَنْبِي أَيَّ أَحَدٍ ...!

الْكُلُّ يَعِيشُ بِنَفْسِ التَّوَقَّيْتُ ...

يَا مَنْ بِالْوَهْنِ بُلِيْتُ ...

يَكْفِيكَ مِنَ التَّبْكِيْتُ ...!

شَخْصٌ مَقْعَدٌ ...

حُلْمِي رَجُلَانِ تَسِيرَانِ ...

لَكِنَّ أَحْلَامَكَ - إِنَّ شَطَحَتَ - عُكَازٌ ... !

لَنْ تَقْدِرَ تَشْنُقُ أَحْلَامِي ...

سَأَحَقُّهَا ...

وَإِذَا حَفَقْتُ الْحُلْمَ فَلَنْ تَحْتَاجَ إِلَى عُكَازٍ ... !

فَرَمَى السَّيَّجَارَ وَقَالَ :

" مَا أَنْتَ سِوَى شَاعِرٍ ... ! "

فَأَجَبْتُ

" بَأَنَّ الشَّعْرَ يَكُونُ بِأَحْيَانٍ

مِنْ أَصْنَافِ التَّخْدِيرِ ...

وَكَذَلِكَ قَدْ يَغْدُو ككِتَابِ التَّفْسِيرِ ...

وَبيَوْمٍ سَوْفَ يَكُونُ أَدَاةً لِلتَّغْيِيرِ ... ! "

وَمَدَدْتُ الْخَطُومَ مَعَ الْمِعْوَارِ

لِكَيْ أَلْقَى السَّيِّدَ ...

وَدَخَلْتُ الْحَضْرَةَ وَحْدِي ...
لا أدري مَا سِرُّ الضَّوِّ الطَّالِعِ فِي عَيْنِي
كَشَّمْسٍ تَنْبُعُ مِنْ أَرْضِ لِسَمَاءِ !
لَمْ أَبْصِرْ فِي عُمْرِي شَمْسًا بَعَمَامَةٍ ...
مَا بَالِي أَشْعُرُ أَنِّي أُدْخِلُ غَارَ حِرَاءٍ ...
وَالشَّمْسُ تَخَفَّتْ خَلْفَ غَمَامَةٍ ...
وَأَنَا لَا أُدْرِي هَلْ أَتَقَدَّمُ نَحْوَ الشَّمْسِ ،
أَمْ الشَّمْسُ السَّمْرَاءُ
بَدَتْ تَتَقَدَّمُ نَحْوِي بِاسْتِحْيَاءٍ ... !؟
وَنظَرْتُ لِدَاكِ الْفَارَسِ وَهُوَ يَشْدُ لِنَامَةٍ ...
فَتَكْتَفِ بِعُضِّ ضَبَابِ الرَّهْبَةِ
فَوْقَ رُجَاكِ الرُّؤْيَةِ
حَتَّى غَيْرَ مِنْ شَكْلِ الْأَشْيَاءِ ...
لَكِنَّ حُضُورَ السَّيِّدِ يُضْفِي الصَّفْوَ عَلَى الْأَجْوَاءِ ...
وَنظَرْتُ لَهُ ...
فَوَجَدْتُ الْوَقْتَ يَعُودُ إِلَى الْمَاضِي
لَأَرَاهُ كَتَلْمِيذٍ لَا يَرْفَعُ إصْبَعَهُ

إِلَّا كَيْ يُبْهَرَ أُسْتَاذًا وَ يَفُوقَ بِمَنْطِقِهِ الزُّمْلَاءَ . . .
و يَمُرُّ الْوَقْتُ
فَيَكْبُرُ حَتَّى أَبْصِرَهُ كَالشَّاعِرِ
لَمْ يَجْهَرَ بِقَصَائِدِ حُبٍّ أَوْ بِقَصِيدِ هِجَاءٍ . . .
و يَمُرُّ الْوَقْتُ لِأَبْصِرَهُ
رَجُلًا يُخْفِي الْعَضَلَاتِ
فَلَا يَتَشَاجِرُ إِلَّا مِنْ أَجْلِ الضُّعْفَاءِ . . .
و يَمُرُّ الْوَقْتُ
لِأَبْصِرَهُ فِي هَذِي اللَّحْظَةِ
كَالْأَسَدِ الْجَبَّارِ
و لَكِنْ . . .
يُهْدِي الْحُبَّ إِلَى الْأَشْبَالِ
كَنُورِ فِي الظُّلْمَاءِ . . .
يَعْلُو فَوْقَ الْهَامَاتِ وَ لَكِنْ
مِنْ دُونَ اسْتِعْلَاءِ . . .
فَنَوَيْتُ الشُّعْرَ
وَ لَكِنْ . . .

دَخَلَتْ فِي الْحَضْرَةِ بَعْضُ ثَعَابِينَ الصَّحْرَاءِ . . .
قَالُوا مِنْ دُونِ حَيَاءٍ :

" فَلْتُنْقِمِ حَدَّ الْحِرَابَةِ "

ذَاكَ شَتَّامُ الصَّحَابَةِ "

فَفَزَعْتُ كَمَا طِفْلٍ
يَتَعَرَّفُ مَعْنَى الْمَوْتِ - بِدُونِ مُقَدِّمَةٍ -
بِوَفَاةِ جَمِيعِ ذَوِيهِ . . . !
وَنَظَرْتُ إِلَى السَّيِّدِ . . .
فَإِذَا بِبِزْرَاعِ السَّيِّدِ قَدْ أُلْقَتْ بَعْصًا . . . !
(فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ) !
فَصَرَخْتُ :

" لَا يَقْدِرُ فِرْعَوْنُ أَنْ يَحْيَا دُونَ السَّاحِرِ "

كَيْ يُعْطِيَهُ الْعَوْنُ . . . ! " "

فَأَجَابَ صُرَاخِي صَوْتٌ :

" لَا يَقْدِرُ سَحَارٌ أَنْ يَحْيَا - أَيْضًا - "

مِنْ دُونَ الْفِرْعَوْنَ ...! "

و بدأت بِشِعْرٍ :

يَا صَانِعَ النَّصْرِ الْمُبِينِ

يَا مَنْ نَصَرْتَ الْمُسْلِمِينَ

فَأَجَابَ السَّيِّدُ وَ هُوَ يُحَلِّقُ

بَيْنَ الْغَضَبَةِ وَالْحِلْمِ :

" لَا تَرْفَعِ أُنْصَامًا كَيْ لَا تَضْطَرَّ بِيَوْمٍ تَهْدِمُهَا !"

فَوَجَدْتُ لِسَانِي فِي حَلْقِي قَدْ ثَبَّتَ بِالْأَوْتَادِ !

لَكِنْ أَكْمَلْتُ لُحُونَ الشَّعْرِ :

يَا صَانِعَ النَّصْرِ الْمُؤَزَّرِ

يَا أَيُّهَا الْأَسَدُ الْمُرْمَجِرُ !

فَوَجَدْتُ السَّيِّدَ يُكْمِلُ سَيْلَ تَدَفُّقِهِ وَيَقُولُ :

" لَمْ يَخْتَرِعِ الْعَدْلَ الْقَاضِي ...! "

لَمْ يَخْتَرِعِ الشَّعْرَ الْمُتَنَبِّيَ ...!
لَمْ يَخْتَرِعِ الإِظْلَامَ اللَّيْلُ ...
و لا الإِصْبَاحَ بِمُخْتَرَعِ النَّوْرِ ...!
لَمْ يَخْتَرِعِ السَّكِّينُ القَتْلَ ...
و لا الأَحْجَارُ الدُّورَ ...
لَمْ يَخْتَرِعِ الإِنْسَانَ العُمُرَ ...
و كَذَلِكَ لَيْسَ صَلاحُ الدِّينِ
بِمُخْتَرَعٍ لِلنَّصْرِ ...!"
فَوَجَدْتُ لِسَانِي فِي حَلْقِي قَدْ ثَبَّتَ بِالْأوتَادِ!
لَكِنْ جَمَعْتُ فَوَايَ و قُلْتُ:
" مَاذَا فِي قَوْمِكَ غَيْرُ النَّاسِ؟
مَاذَا غَيَّرَتْ بِهِمْ؟ "
فَتَبَسَّمَ يَضْحَكُ ثُمَّ أَجَابَ:
" أَبْنِي ...
الكَرْمَةُ يَنْضِجُ مَا فِيهَا مِنْ أَغْنَابِ
فِي مَوْسِمِهِ حَتَّى لَوْ لَمْ يَقْطِفْ أَحَدٌ
ذَلِكَ العُنُقُودَ ...!"

وَرَحِيقُ الزَّهْرَةِ مَوْجُودٌ فِيهَا
 حَتَّى لَوْلَمْ يَتَقَدَّمْ نَحْلٌ فِي الْوَقْتِ الْمَوْعُودِ !
 وَاللُّؤْلُؤُ فِي الْمَحَارِ يِعْمَقُ الْبَحْرَ
 وَ إِنْ لَمْ يَغْطَسْ غَوَاصٌّ
 كَيْ يَظْفَرَ بِالْمَقْصُودِ ... !
 وَالْمَعْدِنُ فِي أَعْمَاقِ الْأَرْضِ
 إِذَا لَمْ يُسْتَخْرَجْ يَبْقَى فِيهَا مِثْلَ
 الْكَنْزِ الْمَفْقُودِ ... !
 لَمْ نَفْعَلْ شَيْئاً يَا وَلَدِي
 غَيْرَ التَّأْكِيدِ عَلَى أَمْرِ مَوْجُودِ !
 الثَّأْرُ لَهُ عُمُرٌ ...
 وَ الثَّأْرُ لَهُ أَطْوَارٌ لَيْسَتْ تَخْضَعُ لِلنَّاسُوتِ ... !
 قَدْ كَانَ الثَّأْرُ بِيَوْمٍ طِفْلاً
 يَحْبُو مِنْ فَوْقِ التَّابُوتِ ...
 وَ بِيَوْمٍ آخَرَ سَبَّ وَ صَارَ مُرَاهِقَ أُرْعَنَ
 يَفْتِلُ شَعَرَ سَوَارِيهِ وَ يُلَوِّحُ بِالنَّبُوتِ ... !
 وَ الْيَوْمَ الثَّأْرُ عَدَا رَجُلًا يَتَكَلَّمُ بِالْمَسْكُوتِ ...

وَيُنْقَسُ عَن ظَلْمٍ مَكْبُوتٍ ...

التَّارُ بِأَرْضِي يَا وَلَدِي

لَا يَهْرَمُ رَعْمَ الْعُمُرِ وَلَيْسَ يَمُوتُ ...!!

فَسَأَلْتُ :

" لِمَاذَا يُهْرَمُ جَيْشٌ فِي أَرْضِي

أَقْوَى مِنْ جَيْشِكَ يَا نَسْلَ الْأَحْبَابِ؟ "

فَأَجَابَ :

" تَذَكَّرُ أَنْ كَثِيرًا مِمَّنْ مَاتُوا عَرَقِي

كَانُوا سَبَّاحِينَ !

و تَذَكَّرُ أَنْ كَثِيرًا مِنْ جُبْنَاءِ الْأَرْضِ

تَرَاهُمْ مَفْتُولِي الْعَضَلَاتِ وَ جَبَّارِينَ ! "

فَسَأَلْتُ :

" لِمَاذَا أَنْتَ الصَّامِتُ تَفْعَلُ ذُنُوبَ كَثِيرٍ كَلَامٌ ؟ "

فَأَجَابَ

" بِأَنَّ رَوَائِحَ حَقْلِ زُهُورِ

أَضْعَفُ مِنْ كَوْمٍ لِقِمَامَةٍ ! "

و سَأَلْتُ بِصَوْتِ الْقَلْبِ :

" هَلْ هُمْ أَذْكَى مِنَّا ؟ "

فَأَجَابَ

"بِأَنَّ ذُكَاءَ الْخَصْمِ

تَجَلَّى فِي إِخْفَاءِ غِبَائِهِ !"

وَسَأَلْتُ :

" مَا سِرُّ تَفُوقِ جُنْدِكَ

يَا مَنْ لَسْتَ مِنَ الْعَسْكَرِ ؟ "

فَأَجَابَ :

" مَنْ كَانَ شُجَاعًا يَشْحَذُ سَيْفَهُ ...

مَنْ كَانَ جَبَانًا دَوْمًا يُعْنَى بِالذَّرْعِ ...

مَنْ كَانَ حَكِيمًا يَنْهَضُ لِلْإِثْنَيْنِ ... !"

فَجَمَعْتُ جُيُوشَ اسْتِفْهَامَاتِي

ثُمَّ نَطَقْتُ وَقُلْتُ :

" قُلْ لِي بِاللَّهِ عَلَيْكَ إِذْنٌ ...

مَاذَا فِي تِلْكَ الْحَرْبِ فَعَلْتُ ؟ "

فَأَجَابَ :

" بَعَوْنِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ أَوْقَفْنَا بِنُدُولِ الدَّلِّ "

الْأُمَّةُ خَاضَتْ مَعْرَكَةً تَمْتَدُّ عَلَى الْأَعْوَامِ
كَمَا السَّرَطَانُ تَحَكَّمُ فِيهَا سَاعَةٌ رَمْلٌ ...
وَيَعُونَ لِلَّهِ قَلْبَنَا السَّاعَةَ ...
فَأَبْدَأُ بِحِسَابِ الْبَاقِي مِنْ عُمْرِ الْأَعْدَاءِ ...!
فَنَهَضْتُ أَقْبَلَ رَأْسَ إِمَامِ الْعِزَّةِ
فِي زَمَنِ الْخِذْلَانِ ...
فَأَبَى أَنْ أَفْعَلَ ...
ثُمَّ تَحَوَّلَ صُبْحًا يَأْخُذُنِي بِضِيَاءٍ مِنْ أَحْضَانٍ ...
وَقُبَيْلَ خُرُوجِي لَأَحْتِ لِي رُؤْيَا
تَتَرَاقِصُ كَالْأَغْصَانِ ...
أَنَا مَا جَالَسْتُ سِوَى طَيْفٍ لِشَهِيدٍ ...!
لَأَجِبَّةَ بَيْتِ رَسُولِ الْأُمَّةِ لِأَنَّ ...
وَعَلَى الْأَعْدَاءِ حَدِيدٌ ...
فَرَجَعْتُ أَهْرُولُ ...
أَهْتِفُ ...
أَصْرُخُ فِي كُلِّ الْآذَانِ :

"بَشَّرْتَ "نَصَرَ اللهُ" بِالنَّصْرِ اقْتَرَبُ

وَأَدَقَّتْ أَعْدَاءَ الْجَنُوبِ مِنَ الْعَجَبِ

بُورِكْتَ يَا نَسْلَ الْحُسَيْنِ قَصَائِدِي

تَرْنُو إِلَيْكَ وَبَحْرُ أَبِيَّاتِي اضْطَرَبُ

عَجَزَتْ صَوَارِيخُ الْيَهُودِ وَلُؤْمُهَا

عَنْ أَنْ تَمَسَّكَ رَغَمَ أَطْنَانَ الْعَضْبِ

وَبَنُو الْعُمُومَةِ حَقْدَهُمْ مُتْرَبِّصٌ

فَاحْذَرُ بِرَبِّكَ مِنْ صَوَارِيخِ الْعَرَبِ!"

فَأَجَابَ وَكَفِّي بَيْنَ يَدَيْهِ

وَالْحِكْمَةَ تَقَطَّرُ مِنْ شَفَاتِيهِ

وَتَوَاضَعُ أَهْلُ الْحَوْزَةِ فِي عَيْنَيْهِ :

لَعْمُرُكَ طُولُ الْعُمُرِ لِلْمَرْءِ نِقْمَةٌ

فِيُصْبِحُ كَالثَّوْبِ الثَّقِيلِ يُعَانِيهِ

سَتُبْصِرُ عَيْنَاكَ الْحَقِيقَةَ بَاطِلًا

و تُبْصِرُ قَاصِي الْوُدِّ فِي النَّاسِ دَانِيَهُ

فَحَسْبُكَ مِنْ دُنْيَاكَ بَعْضُ نَعِيمِهَا

و حَسْبُكَ مِنْ دَهْرِكَ بَعْضُ مَآسِيهِ

و حَسْبُكَ عَجْبًا بِأَمْرِي مَدْحُ نَفْسِيهِ

و هَجْرَانُ خِلَانٍ ، و نَسْيَانُ مَاضِيهِ

فِيُبْدي إِذَا صَافَاكَ وُدًّا مُمَوَّهًا

و يُبْدي إِذَا عَادَاكَ كُلَّ مَخَازِيهِ

و حَسْبُكَ خُبْنًا بامرئٍ أَنْ تَوَدَّه
مَخَافَةَ أَنْ تُصَلِّيَ بِبَعْضِ مَسَاوِيهِ !

أصَابِعُهُ تَمْتَدُّ بِالْجُودِ فِي الرِّضَا
و لَمَّا أَتَاهُ السُّخْطُ مَدَّ أَفَاعِيهِ

و حَسْبُكَ دُمًّا لامرئٍ دُمُّ نَسْلِهِ
و إِقْصَاءُ ذِي الْقُرْبَى ، و مَدْحُ أَعَادِيهِ

فَيَثْقُلُ عَنْ سَعْيِ لْخَيْرِ فَصِيلِهِ
و نَحْوِ صُنُوفِ الشَّرِّ خَفَّتْ مَسَاعِيهِ

إِذَا كَانَ وَجْهَ الْمَرءِ بِالْقُبْحِ نَاطِقًا
فَكَيْفَ - رُزِقْتَ الْعَقْلَ - سَوْفَ يُدَارِيهِ!

و حَسْبُ كَبِيرِ الْقَوْمِ أَنْ يَحْفَظَ اسْمَهُ
لِتَبْقَى عَلَى طُولِ الزَّمَانِ مَعَانِيهِ

و صُرِفْتُ عَزِيْزاً مِنْ نُوْرِ الْحَضْرَةِ ...
و مُقَارَنَةً فِي ذَهْنِي تَعَصِرُنِي ...
و وَجَدْتُ أَمَامِي فَارِسَ تِلْكَ الْحَرْبِ
الْبَالِغِ طُولِ الْأَرْزِ يُرَحِّبُ بِي ... !
و أَنَا تَعَبْتُ
تَعَبْتُ
تَعَبْتُ ... !

بَكَيْتُ عَلَى حَالِي وَ كَفُّ مُرَافِقِي
تَكْفِكِفُ مِنْ دَمْعِي وَ نَحْنُ نَسِيرُ
فَقَالَ : "أَمِنْ هُمْ دُمُوعَكَ قَدْ جَرَتْ"
فَقُلْتُ لَهُ : "إِنَّ الْهُمُومَ كَثِيرُ"

فَقَالَ : " تَكَلَّمْ ، خَفَّفِ الْحِمْلَ يَا فَتَى "

فَقُلْتُ لَهُ : " إِنَّ الْكَلَامَ عَسِيرٌ "

فَقَالَ : " بَأَنَّ السَّرَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ "

فَقُلْتُ لَهُ : " إِنَّ الرَّئِيسَ حَقِيرٌ ! "

وَقُلْتُ : " نَخَافُ الْمَوْتَ حُبَّ حَيَاتِنَا "

فَأخْبَرَنِي : " أَنَّ الْمَمَاتَ مَصِيرٌ ! "

وَنظَرْتُ أَمَامِي لَا أَتَصَوَّرُ أَيْنَ الْحَدُّ الْفَاصِلُ

بَيْنَ خَيَالِي وَالْوَاقِعِ . . . !

أَتَأَمَّلُ فِي ذَلِكَ الْجُنْدِيَّ بِلِحْيَتِهِ السَّوْدَاءِ . . . !

وَسَأَلْتُ بِلَا حَوْفٍ :

" هَلْ ذَلِكَ أَنْتَ ؟ "

فَأَجَابَ :

" أَنَا خَالِدٌ . . . "

فَفَرَكْتُ عِيُونِي كَيْ أَتَأَكَّدُ :

"أَنْتَ الضَّابِطُ خَالِدٌ؟"

فَأَجَابَ :

" وَ مِنْ قَبْرِي عَائِدٌ ... "

فَصَرَخْتُ بِهِ :

جَاءَ فَوْقَ الْكُرْسِيِّ يَحْكُمُ بَعْتَةً

بَعْدَ أَنْ كَانَ فِي الْخَلَائِقِ نُكْتَةً !

فَعَدَا أَرْجَحَ الْبَرِيَّةِ عَقْلاً

وَ عَدَا فِي كُلِّ الْمَسَائِلِ فَلْتَةً !

وَ تَمَّرُ الْأَيَّامُ وَ هُوَ مُقِيمٌ

وَ الْمَلَائِكَةُ تَسْأَلُ اللَّهَ مَوْتَهُ !

مِثْلَ طَاعُونٍَ قَدْ أَتَى .. فَدَعَوْنَا

رَبَّنَا أَنْ يُمِيتَهُ بِالسَّكِنَةِ!

مُغْلَقُ الْعَقْلِ مِثْلَ كُلِّ حِمَارٍ

وَلِكُلِّ الْأَعْدَاءِ يَفْتَحُ إِسْنَتَهُ!

لَيْسَ فِي الشَّرْعِ لِلْحِمَارِ قِصَاصٌ

فَلِمَذَا يَا صَاحِبِي مَا قَتَلْتَهُ!؟

فَتَبَسَّمَ .. ثُمَّ تَنَحَّحَ .. ثُمَّ تَكَلَّمَ ..

مِثْلَ الشَّمْسِ تَنْيرُ بِلَادًا :

” قَدْ جِئْتُ لِكَيْ تَتَعَلَّمَ مِنِّي مَعْنَى النَّصْرِ ...

النَّصْرُ كَزَرْعٍ يَزْرَعُهُ الْأَبَاءُ

لِتَحْصُدَهُ الْأَوْلَادُ أَوْ الْأَحْفَادُ ...

النَّصْرُ بِتَغْيِيرِ الْأَفْكَارِ

وَلَيْسَ بِتَغْيِيرِ الْأَفْرَادِ ...!

التَّصَرُّ يُكُونُ بِهِدْمِ السَّجْنِ

وَلَيْسَ بِتَغْيِيرِ الْجَلَادِ...!!

و تَلَاشَى مِثْلَ النُّورِ كَمَا جَاءَ...!!!

و جَلَسْتُ أَفْكَرُ فِيمَا قَالَ مِنَ الْأَفْكَارِ

و تَبَرَّجُ مَعْنَى الْفِكْرَةِ فِي عَيْنِي

يَلُوحُ كَضَوْءِ نَهَارٍ...

كَمْ فِي الْمَاضِي صَفَقْنَا

ظَنًّا مِمَّا أَنَّ الظُّلْمَ انْهَارُ...

مَا كُنَّا نَدْرِي

أَنَّا حَقَّقْنَا لِلظُّلْمِ اسْتِمْرَارًا...!

و بِيَدُونِ مُقَدِّمَةٍ

أَبْصَرْتُ أَمَامِي شَخْصًا يَجْلِسُ يَنْظُرُ لِي...

فَهَمَمْتُ بِأَنْ أَتَكَلَّمَ...

لَكِنْ...

بَادَرَنِي:

" اسْمِي مُقْبِلٌ...

و أَبِي مَاضِي...

عَمَلِي أَسْتَاذَ للتَّأْرِخِ ...
وَلَدْتَنِي أُمِّي بَعْدَ رَحِيلِكَ عَن دُنْيَا الأَحْيَاءِ هُنَا
بِثَلَاثِ مِئِينَ سَنَةٍ ...!
وَأَنَا مَبْعُوثٌ بِالأَثَرِ الرَّجْعِيِّ هُنَا
لأَجِيبَ عَلَيكَ ...
يَا مَنْ يَتَكَتَّفُ كُلُّ ضَبَابِ الكَوْنِ
عَلَى عَيْنَيْكَ ...
وَتَسِيرُ الدُّنْيَا فِي طَابُورِ عَلامَاتِ اسْتِفْهَامٍ
فِي كَفَّيْكَ ...
مَا زِلْتُ أَدْرُسُ لِلأَطْفَالِ مَآثِرَكُم
فِي عَامِهِمُ الأَوَّلِ ...
غَدَكُمُ أَجْمَلِ ...
وَالنَّصْرُ لَقَدْ أَقْبَلُ ...
الْخَرْقُ كَبِيرُ ...
وَالنَّصْرُ مَصِيرُ ...
لَكِنِ خُطُواتِ تَفْصِيلُ
بَيْنَ الأُمَّةِ وَالتَّخْرِيرِ ...

لِلنَّصْرِ وَسَائِلُ ...
و هَزِيمَتُكُمْ جَاءَتْ بِمَرَاحِلُ ...
و النَّصْرُ مَرَاحِلُ ...
و الْيَوْمَ بَدَأْتُمْ فِي مَرِحَلَةِ النَّصْرِ ...
و عَدُوُّ الْأَرْضِ نِهَائِتُهُ
بِتَحَرُّرٍ ثُمَّ تَحْرُكٍ مِصْرُ ...!"
فَسَأَلْتُ :
" و مَاذَا فِي كُتُبِ التَّأْرِيخِ عَنِ السَّيِّدِ ؟
هَلْ يَبْدُو مِثْلَ صِلَاحِ الدَّيْنِ ؟"
فَأَجَابَ :
" هُوَ "نُورُ الدَّيْنِ" ...
(و عَدَلٌ مِنْ وَضْعِ النَّظَارَةِ)
" يَبْدُو لِصِلَاحِ الدَّيْنِ الْآتِي مِثْلَ بَشَارَةِ ...
هُوَ فِي الْفَصْلِ الثَّانِي يَبْدُو لِلْقَائِدِ كَالْتَمَهِيدِ
و يَبْدُو لِلتَّحْرِيرِ أَمَارَةً ...
و لِنَارِ النَّصْرِ شَرَارَةً ...
هَذَا تَارِيخُ الْمُسْتَقْبَلِ ...!"

فَسَأَلْتُ :

" وَ كَيْفَ تَحَقَّقَ ذَلِكَ النَّصْرُ الْآتِي ... ؟

أَهْدَمْنَا ذَلِكَ السَّجْنُ ؟

أَمْ غَيَّرْنَا الْجَلَادُ ؟ "

فَأَجَابُ :

" اسْمِي مُقْبِلٌ ...

و أَبِي مَاضِي ...

أَنَا أَعْرِفُ أَنَّ النَّصْرَ تَحَقَّقَ

لَكِنْ لَا أَدْرِي كَيْفَ ... !

كَيْفِيَّةُ ذَلِكَ النَّصْرِ أُمُورٌ يَعْرِفُهَا أَبِي ...

تَبَدُّو لِي مِثْلَ تَفَاصِيلِ ...

وَأَنَا لَا أَشْغَلُ بِالتَّفْصِيلِ الطُّلَابَا ...

و اسْمُحْ لِي سَوْفَ أَعُودُ الْآنَ لِمَدْرَسَتِي ... "

و مَضَى كَالْبَرْقِ ... !

و بِنَفْسِ اللَّحْظَةِ دَقَّتْ فِي الْأَذَانِ طُبُولٌ ...

و وَجَدْتُ أَمَامِي إِنْسَانًا يَتَحَرَّكُ فِي إِجْلَالٍ

مِثْلَ مِيَاهِ النَّيْلِ ... !

الوَجْهَ جَمِيلٍ ...

و جَلالُ الطَّلَعَةِ أَشْعَرَنِي

و كَأَنَّ الارْزَ عَلَى رِجْلَيْهِ يَمِيلُ ... !

فَسَأَلْتُ رَفِيقَ الرِّحْلَةِ :

" مَنْ هَذَا الْجَبَّارُ الشَّامِخُ

مَبْعُوثًا مِنْ عَلِيِّينَ ؟ "

فَأَجَابَ :

" وَ هَلْ يَخْفَى عَنْ عَيْنِكَ

شَكْلُ صَلَاحِ الدِّينِ ؟ "

فَرَكَضْتُ إِلَيْهِ

كَطِفْلٍ يَرَكُضُ نَحْوَ أَبِيهِ بِكُلِّ حَيِّنٍ ...

وَ صَرَخْتُ بِإِنْشَادِ مَحْمُومٍ :

" قُلْ لِي يَا قَائِدِنَا

مَا مَعْنَى النَّصْرِ ؟ "

فَتَبَسَّمَ ...

ثُمَّ تَنَحَّحَ ...

بَسْمَلَ ...

تَابِعْ يَحْمَدُ فَضَلَ اللهُ

بِصَوْتِ يَعْزُو مِثْلَ الْمَوْجِ وَقَالَ :

" اَعْلَمَ يَا طَالِبَ مَعْنَى النَّصْرِ

بِأَنَّ حَيَاةَ النَّاسِ سِبَاقٌ ...

وَسِبَاقُ الْعُمُرِ فَرِيدٌ ...

يَتَسَابَقُ فِيهِ مَلَائِينُ الْأَشْخَاصِ

وَكُلٌّ مِنْهُمْ يَقْدِرُ فِي أَيِّ الْأَوْقَاتِ

يَخْطُ بِدَايَةٍ ...

وَأَنَا قَرَّرْتُ أَكُونُ لِتِلْكَ الْأَرْضِ بِدَايَةً ...

وَرَأَيْتُ الْغَاصِبَ لِلْأَمْجَادِ نِهَايَةً ...

وَسَعَيْتُ لِتِلْكَ الْغَايَةِ ...

وَحَدَّثْتُ الشَّامَ وَمِصْرَ

وَتِلْكَ الْأَرْضَ كَرِيمَةً ...

وَعَرَفْتُ بِأَنَّ النَّصْرَ يَعِزُّ إِذَا لَمْ تَفْهَمْ

كَيْفَ هُزِمْتَ ... !

بَلْ أَكْبَرُ جُرْمٍ لِلْمَهْزُومِ

تَقَاعُسُهُ فِي تَوْثِيقِ الْأَسْبَابِ ...

و إِزَالَةَ آثَارِ الْعُدْوَانِ جَرِيمَةً ...
بَلْ تُفْلِحُ حِينَ تُزِيلُ الْعُدْوَانَ ! ...
فَصَبَرْتُ ...

أَعِدُّ الْعُدَّةَ ...

حَتَّى اسْتَوْفَيْتَ تِلْكَ الْأَرْضَ - بِعَوْنِ اللَّهِ
و صَبَرَ الشَّعْبَ - شُرُوطَ النَّهْضَةِ
و الثَّارَاتُ تُغْدِي فِي الْأَجْنَادِ عَزِيمَةً ...
فَسَأَلْتُ :

" وَ كَيْفَ فَعَلْتَ وَ هُمْ أَقْوَى ؟ "

فَأَجَابَ يَقُولُ :

" بُنِيَ تَأَكُّدُ أَنْ الرِّيحَ وَ إِنَّ قَوِيَّتْ
لَا تَقْدِرُ تَحْمِلُ شَيْئاً مَهْماً خَفَّ
سِوَى لِحَظَاتٍ ... !

وَ عِزَاةُ الْأَرْضِ

تَرَابٌ قَدْ حَمَلْتَهُ الرِّيحُ ... !

وَ لَقَدْ قَرَّرْنَا نَهْضُ بَعْدَ سُبَاتٍ ...

الْجَيْشُ الْخَارِقُ يَصْنَعُ حَرْبَهُ ... !

و الجَيْشُ المَهْزُومُ المَرْكُوبُ
دَوَامًا يَنْتَظِرُ الجَيْشَ الأَقْوَى
كَي يُغْرَقَهُ فِي بَحْرِ مِنْ أَزْمَاتٍ ...!"
فَسَأَلْتُ :

" و مَاذَا أَنْتَ فَعَلْتِ ؟

مَا دَوْرُكَ أَنْتِ ؟"

فَأَجَابَ :

" أَنَا نَاتِجِ أَلْفِ مُعَادِلَةٍ تَتَوَحَّدُ فِي الجَمْعِ ...

أَنَا أَدَقْدَقَاتُهَا النَّاسُ مِنَ الوَجَعِ ...

أَنَا حُلْمٌ لِلعَقْلِ الجَمْعِيِّ ..."

فَسَكَتُ ...

و لَكِنْ بَعْدَ قَلِيلٍ قُلْتُ :

" قَدْ عَادُوا يَا سُلْطَانَ الأَرْضِ لِنَفْسِ البُقْعَةِ

وَ احْتَلُّوْهَا ...!"

فَأَجَابَ :

" سَتَنْتَصِرُونَ ...

إِنْ قَامَ القَائِدُ فِي الفُسْطَاطِ ...!"

اسْتَأذِي نُورَ الدِّينِ تَوَلَّى أَمْرَ بِلَادِ الشَّامِ

وَلَمْ يَتَحَقَّقْ ذَاكَ النَّصْرُ ...

وَتَحَقَّقَ بَعْدَ مَجِيئِي أَحْكُمْ مِصْرُ ...

الشَّامُ وَمِصْرُ هُمَا فَكَا الكَمَاشَةَ ...

بِهِمَا تَتَغَيَّرُ كُلُّ عَنَّاوِينِ الأَخْبَارِ

بِتِلْكَ الشَّاشَةَ ... "

فازدادتُ جُرْأَةُ قَلْبِي ...

وَنَطَقْتُ أَقْوُلُ :

" أَيَا سُلْطَانَ الأَرْضِ ...

لِخِصِّ لِي مَعْنَى النَّصْرِ ... ! "

فَأَجَابَ بِدُونِ تَرَدُّدٍ :

" الكُلُّ يُرِيدُ الجَنَّةَ لَكِنْ

لَا إِنْسَانَ يُرِيدُ المَوْتَ ... ! "

فَهَتَفْتُ بِهِ :

" وَضَّحْ ... ! "

فَأَجَابَ :

" النَّصْرُ طُمُوحُ قِيَادَةٍ ...

و النَّصْرُ دِمَاءُ شُعُوبٍ ...
النَّصْرُ طَرِيقُ شَهَادَةٍ ...
و النَّصْرُ دُعَاءُ قُلُوبٍ ...
و النَّصْرُ سَلَامٌ تُبَسِّطُ فِيهِ سَيَادَةَ ...
فَتَرَى جِيالاً مِنْ جُنْدِ النَّصْرِ
لِهَذَا الْجَيْشِ يَوْوُبٍ ...
النَّصْرُ بَأَنْ يَتَسَاوَى النَّاسُ بِتِلْكَ السَّادَةِ ...
فَتَرَى شُعْباً مِنْ دُونَ ذُنُوبٍ ...
و كَذَلِكَ جَيْشاً مِنْ ذُنُوبِ الْإِذْبَارِ يَتُوبُ ...!
النَّصْرُ تَعَلُّمٌ كَيْفَ هُزِمْتَ
عَلَى غَيْرِ الْعَادَةِ ...
لِتَسِيرَ بِدَرْبِ هَزِيمَتِكَ الْمَرْعُومَةِ
لَكِنْ بِالْمَقْلُوبِ ...!
هَذَا مَعْنَى نَصْرِي ...
و مَعَانِي النَّصْرِ كَثِيرَةٌ ...
فَاسْأَلْ فِي مَعْنَاهَا هَذَا الْجُنْدِيَّ الْوَارِثَ مَجْدِي
مِنْ أَتْبَاعِ السَّيِّدِ ...!"

و أشارَ إلى الجُنْدِيِّ

البالغِ طُولَ الأرزِ جِوَارِي

ثُمَّ رَحَلَ ...

و بَدُونَ سؤَالِ قَالَ الشَّامِخُ مِثْلَ اللَّحْنِ :

” أَعَشِقُ الفَجْرَ وَ أَشْتَأِقُ قُدُومَهُ ...

بَيِّدَ أَنَّ الفَجْرَ لَمْ يَرْضَ بِأَنْ يَخْتِمَ لَيْلِي ...

وَ قِيَادَاتِ لِأَعْدَائِي خُدُومَةَ ...

قَايَضْتُ بِالْعِرِّ ذُلِّي ...

وَ ظِلَامُ اللَّيْلِ فِي عَيْنَيَّ يَبْنُو

أَسْوَأَ مِنْ وَجْهِ الحُكُومَةِ ...

دَائِمًا يَسْتُرُ قَتْلِي ...

مِثْلَ مَنْ قَدْ مَاتَ قَبْلِي ...

بِصَوَارِيخِ الأَعَادِي

أَوْ بِنِيرَانِ لِأَبْنَاءِ العُمُومَةِ ... !

كَمْ عَشِقْتُ الفَجْرَ وَ أَشْتَقْتُ قُدُومَهُ ... !

وَ لَقَدْ صَاحَ بِقَوْمِي صَوْتُ حُرٍّ :

"نَضَجَ الْجُرْحُ فَاقْطِفُوا النَّارَ مِنْهُ"

و أَحِيلُوا حُزْنَ الْحُقُولِ سَنَائِلُ

حَوَّلُوا الْحُبَّ أَدْرَعًا لِبِنَاءِ

و أَحِيلُوا الْكُرَّةَ النَّبِيلَ قَنَائِلُ

شَرَفَ الْمَرْءِ أَنْ يَعِيشَ أَبِيًّا

أَوْ بَانَ يَقْضِي وَ هُوَ حُرٌّ يُقَاتِلُ"

فَاسْتَجَبْنَا ... !

وَ طَلَبْنَا الْمَوْتَ عَشْقًا لِلْحَيَاةِ ...

وَ رَفَضْنَا الْمَوْتَ ذُلًّا خَوْفَ إِقْبَالِ الْمَمَاتِ ...

وَ تَعَايَشْنَا مَعَ الْمَوْتِ

وَ مَا الْمَوْتُ سِوَى لُبِّ الْحَقِيقَةِ ...

هُوَ دَرْبٌ سَارَ فِيهِ الْكُلُّ مِنْ فَجْرِ الْخَلِيقَةِ ...

كُلُّ حُرٍّ فِي الْجَنُوبِ ...

يَعْرِفُ الْيَوْمَ طَرِيقَهُ ... !
قَدْ دَرَسْنَا مَا حَدَّثَ ...
زُورُوا كُلَّ التَّفَاصِيلِ الْعَتِيقَةِ ...
قَايِضُوا الْأَرْضَ بِعَرْشِ لَنْ يَدُومَ ...
غَدَرُوا بِالْأَرْضِ ثُمَّ انْطَلَقُوا يَهْتَفُونَ :
إِنَّهُ غَدْرٌ وَفِيَّ ... !
حَبَسُوا الْجَيْشَ بِأَوْرَاقِ مُذَلَّةٍ ...
ثُمَّ قَالُوا :
إِنَّهُ نُلُّ أَبِي ... !
حَكَمُوا بِالْحُمُقِ هَاتِيكَ الْبِلَادَ ...
ثُمَّ قَالُوا :
إِنَّهُ حُمُقٌ ذَكِيٌّ ... !
عَمَّمُوا الْفَقْرَ عَلَى كُلِّ الْعِبَادِ ...
ثُمَّ قَالُوا :
إِنَّهُ فَقْرٌ غَنِيٌّ ... !
قَدْ رَفَضْنَا نَلِكَ الْكِدْبِ الْجَلِيِّ ...
نَحْنُ قَرَّرْنَا بِأَنْ لَا نَلْعَنَ الْمُنْتَصِرَ ...

بَلْ سَنَحْظِي بِانْتِصَارٍ
 وَتَرَى الْمَهْزُومَ يَلْعَنُنَا...!
 دَرُبْنَا وَاللَّهِ دَرْبٌ وَاضِحٌ لِلْعَيْنِ
 يُدْعَى بِالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ...
 سَنَّهُ رَبٌّ قَدِيرٌ وَعَظِيمٌ...
 أَنْ تَضْحَى دُونَمَا أَيُّ ضَجِيجٍ...
 مِثْلَمَا تُطْوَى الْمَنَادِيلُ...
 كَمَا يَسْتَيْقِظُ الْإِنْسَانُ قَبْلَ الْفَجْرِ
 كَيْ يَشْرَبَ مَاءً دُونَ أَنْ يُوقِظَ أَهْلَ الْبَيْتِ
 أَوْ يَخْطُبَ فِيهِمْ كَالزَّرْعِيمِ...!
 إِنَّهُ دَرْبٌ تَرَى فِيهِ جُمُوحَ الْفَارِسِ الْأَمْوَجِ
 يَمْضِي عَنَّا دَرْبٌ خَطَّةُ شَخْصٍ حَكِيمٍ...!
 إِنَّهُ طَعْمٌ لَذِيذٌ وَأَلِيمٌ...
 إِنَّهُ نَهْجٌ جَدِيدٌ وَقَدِيمٌ...
 وَثَبَّةٌ قَدْ هَرَوَلَتْ نَحْوَانْتِصَارٍ...
 قَفَرَتْ فَوْقَ الْجِدَارِ...
 نَحْنُ لَمْ نَنْسَ الْهَزِيمَةَ...

كَلَّمَا أَخْرَجَ لَغَمٌ نَابَهُ ...
نَاهِشًا رَجُلَ صَدِيقِ
لَأُرَانِي قَدْ تَذَكَّرْتُ الْهَزِيمَةَ ...
كَيْفَ أَنْسَاهَا ...؟
وَنِسْيَانِي جَرِيمَةً ...!
كَمْ بِلَيْلِي قُدْتُ سَيَّارَةَ نَقْلِ الْمَوْتَى ...!
وَأَنَا الْآنَ أَقْوَدُ الْجَيْلَ نَحْوَ النَّجْمِ
فِي حِضْنِ السَّمَاءِ ...
أَصْبَحَ الْمَوْقِفُ أَجْمَلُ ...
وَأَنَا فِي كُلِّ وَقْتٍ أَتَأَمَّلُ ...
إِنْ تَأَمَّلْتُ أَرَقْتُ ...
وَأَرَى بَعْضَ الْبَشَرِ ...
يَتَأَمَّلُ ...
كَيْ يَنَامَ ...!
فَتَأَمَّلُ كَيْفَ تَأْتِينَا الْهَزِيمَةَ :
ذَاتَ يَوْمٍ عَاشِقٌ حَنَّ لِمَعشُوقٍ بِلَيْلٍ ...
فَقَضَى اللَّيْلَ اخْتِرَاعًا لَوْسِيلَةَ ...

وبِهَا يَعْرِفُ كَمْ يَوْمًا قَسَى الْمَحْبُوبُ

وَأَمْتَدَّ الْخِصَامُ ...

إِنَّهَا الْأَرْقَامُ ...

وَأَتَى التَّاجِرُ وَالسَّارِقُ وَالصَّانِعُ وَالصَّرَافُ

كُلُّ وَظَّفَ الْأَرْقَامَ

فِي شَأْنِ سِوَى شَأْنِ الْغَرَامِ ... !!

إِنَّنَا نَحْنُ اخْتَرَعْنَا عَجْزَنَا ...

وَعَدُوُّ الْأَرْضِ قَدْ وَظَّفَ ذَاكَ الْإِخْتِرَاعَ ...!

هَكَذَا تَأْتِي الْهَزِيمَةُ ...!

الْهَزِيمَةُ ...

دَائِمًا تَدْخُلُ بَيْتَ الشَّعْبِ دُونَ الْإِنِّ ...

تَكْسِرُ الْبَابَ ...

تَقْتُلُ الْأَحْبَابَ ...

لَكِنَّ النَّصْرَ عَلَى مَرِ عُصُورِ الدَّهْرِ

لَا يَأْتِي بِإِلَّا دَعْوَةً ...

دَعْوَةً مِنْ خَلْفِ دَعْوَةٍ ...!

يَفْرَشُ النَّاسُ لَهُ السَّجَادَ ...

وَدَوَامًا يَتَمَنَّعُ ...
يَتَأْبَى ...
كَالْقَصِيدَةِ ...
ثُمَّ فِي الْآخِرِ يَأْتِي بَعْدَ جَهْدٍ ...
أَيُّهَا الشَّاعِرُ إِنَّ الْوَطْنَ الْيَوْمَ
غَدًا مِثْلَ سَقِينَةٍ ...
فِي بَحَارِ الْخَوْفِ لِيَأْ جَنَحَتْ ...!
قَالَهَا ثُمَّ سَكَتَ ...
فَسَأَلْتُ :
هَلْ سَنُبْحِرُ؟ هَلْ سَنَغْرَقُ؟
فَأَجَابَ :
" إِنَّهُ الرَّبَّانُ ! ...!
رُبَّمَا تَغْرَقُ فِي الْبَحْرِ سَقِينَةٌ ...
وَتَرَى الرَّبَّانَ فِيهَا يَغْرَقُ ...
ذَاكَ رَبَّانٌ لَعَمْرِي مُخْلِصٌ ...
وَتَرَى رَبَّانَ أُخْرَى مَاهِرًا ...
فَتَرَاهَا لَيْسَ تَغْرَقُ ...

وَحَدَهُ الرُّبَّانُ - إِنْ كَانَ خَسِيسًا -
سَوْفَ يَنْجُو...
وَتَرَى تِلْكَ السَّفِينَةَ...
وَحَدَهَا تَغْرُقُ فِي الْبَحْرِ حَزِينَةً...!
هَذِهِ قِصَّةُ شَعْبٍ صَامِدٍ...
مَعَ قِيَادَاتٍ لِيْلٍ مُسْتَكِينَةٍ...
قِصَّةُ الْأَخْضَرِ وَالْأَصْفَرِ...
إِنَّمَا الْأَخْضَرُ لَوْنٌ عَاشِقٌ...
وَحَدَهُ الْأَصْفَرُ لَوْنٌ حَاقِدٌ...!
إِنَّهَا قِصَّةُ شَعْبٍ وَقِيَادَةٍ...
تِلْكَ الشَّعْبُ مَحَطَّاتٌ لِتَوْلِيدِ
وَخَلْقِ الْكَهْرُبَاءِ...
وَبِلَا الْمِصْبَاحِ نَبْقَى فِي الظَّلَامِ...!
وَنَظَرْتُ لَهُ لِأَرَاهُ يُلَوِّحُ لِي بِوَدَاعٍ
وَهُوَ يَغِيبُ...
فَعَرَفْتُ بِأَنَّ الرَّحْلَةَ فِي آخِرِهَا...
لَا أُدْرِي كَيْفَ يَزُوعُ الْوَقْتُ مِنَ الْأَعْمَارِ
كَمَا الزَّنْبَقُ...

الْوَقْتُ يَمُرُّ ...

و السَّاعَةُ أَلْبَسُهَا بِيَدِي ...

لَكِنْ لَا بُدَّ لِتَعْرِفَ كَمْ قَدْ مَرَّ

بَيْنَ تُلْقِي لِلسَّاعَةِ نَظْرَةً ... !

و نَظَرْتُ لِذَاكَ الشَّامِخِ أَسْأَلُهُ :

" هَلْ تَرَعَبُ شَيْئاً مِنْ بَلَدِي ؟

مِنْ مِصْرُ ؟ "

فَأَجَابَ :

" بَأَنَّ الحَرْبَ قَرِيبَةً ...

حَاوِلْ أَنْ لَا تَأْتِيَ وَحْدَكَ ... ! "

فَأَجَبْتُ :

" سَنُحَاوِلُ أَيْضاً

أَنْ لَا نَأْتِيَ بَعْدَ الحَرْبِ ... ! "

تمت في القاهرة

٢٠٠٦ / ١٠ / ١٩

السادس والعشرين من رمضان ١٤٢٧

في السادسة صباحاً

٢٠٠٦ / ٨ / ٩

و لله الحمد و المنة